تاريخ أوربا
في أواخر العصور الوسطى

دكتور
حامد زيان غانم
كلية الآداب - جامعة القاهرة

تاريخ أوربا

فى أواخر العصور الوسطى

دكتـــور

حامد زيان غانم

كلية الآداب - جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يمثل تاريخ العصور الوسطى الأوربية فترة زمنية طويلة. فإذا أخذنا بالآراء التى تشير إلى أن القرن الرابع الميلادى يمثل البدايات الأولى للعصور الوسطى الأوربية ، واعتبرنا نهاية تلك العصور قيام النهضة الأوربية وسقوط الدولة البيزنطية فى يد العثمانيين . فمعنى هذا أن هذه العصور تمتد لأكثر من إحدى عشر قرناً من الزمان.

ودراسة هذه الحقبة الزمنية يتطلب وقتاً وجهداً كبيرين ، لذلك كان من المفيد تقسيم دراسة هذه الفترة إلى قسمين . القسم الأول وهو المدخل لتاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، ويشمل البدايات الأولى لهذا العصر، ويمتد حتى انهيار الإمبراطورية الكارولنجية وانسياب جماعات الفبكنج فى أوربا ليعم الظلام والخراب فى كل أنحاء أوربا ، وتسيطر النظم الإقطاعية على كل نواحى الحياة فى أوربا سواء كانت سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية .

أما القسم الثانى فهو الذى يبدأ بإحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى ألمانيا ، وهى التى استطاعت فرض نفوذها على أجزاء كبيرة من أوربا خاصة إيطاليا ، وقد أدى هذا إلى اصطدامها بقوة البابوية خاصة بعد صحوة الأخيرة نتيجة حركة الإصلاح الكلونية ، وبعث الروح من جديد فى قوة البابوية الأمر الذى جعلها تصبح قوة لايستهان بها فى أوربا .

وكان من البديهى دخول هاتين القوتين (الإمبراطورية والبابوية) فى صراع مع بعضها البعض حول من منهما أسمى ؟ ومن منهما له القوة والغلبة؟ وإذا كان هذا الصراع قد امنها بانتصار البابوية ، فهو فى حقيقة الأمر انتصار ظاهرى ، فلم يلبث أن استاء أهالى أوربا مما وصل إليه الباباوات من بطش وتعسف وإمعان فى إذلال الأباطرة ، ومن هنا تغيرت نظرة أهالى أوربا للبابوية.

وقد صاحب هذا الوضع دخول البابوية فى دور من أدوار الضعف وتردى الكنيسة الغربية فى كثير من الأخطاء . الأمر الذى دفع البعض إلى المناداة بإصلاح أحوال الكنيسة الغربية ، وهو الذى أدى فى النهاية إلى قيام حركة الإصلاح الدينى التى تزعمها مارتن لوثر فيما بعد .

وخلال هذه الفترة أيضا ظهرت الدول الأوربية الحديثة ، خاصة إنجلترا وفرنسا ، وأخذت تبلور الملكيات فى كل منهما ، كما أخذ الصراع يدب بينهما ذلك الصراع الذى استمر قرابة قرن من الزمان ، وهو الذى أطلق عليه حرب المائة عام .

وخلال دراسة هذه الفترة لا يمكن إغفال تلك الحروب التى اشتعل أداءها ضد المسلمين أينما كانوا وهى التى عرفت فى التاريخ باسم الحروب الصليبية والتى كانت البابوية هى المحرك الأول لها ، فنهره فى ذلك ظروف كل من الغرب الأوربى والشرق الإسلامى .

وترتب على ذلك إنحسار النفوذ الإسلامى من أوربا ثم زال نهائياً خاصة فى كل من صقلية وأسبانيا ، وخرجت هذه البلاد من يد المسلمين إلى يد الأوربيين . وقد أدرك الأوربيون أهمية الحضارة الإسلامية التى تمتعت بها هذه البلاد لذلك عملوا على تشجيعها والعمل على استمرارها ، ثم أخذوا ينقلون وينهلون منها فترجموا معظم آثار المسلمين الحضارة إلى اللغة اللاتينية وغيرها من اللغات الأوربية التى تفرغت عن اللاتينية ، مما ساعد على صحوة أوربا ، وهى الصحوة التى عرفت باسم نهضة القرن الثانى عشر والتى امتدت بعد ذلك إلى القرن الخامس عشر .

وكذلك لا يمكن إغفال ما كان للدولة البيزنطية من دور فى تاريخ هذه الفترة ، لدرجة أن سقوطها فى يد العثمانيين كان له دور كبير على غرب أوربا ومؤثراً فى تاريخها .

وتعتبر هذه النهضة الأخيرة (نهضة القرن الخامس عشر) هى نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة ، لأنها ساعدت على ظهور خصائص ومميزات لا يمكن أن نضعها فى مصاف العصور الوسطى .

إحياء الامبراطورية الرومانية

بوفاة شارلمان عام ٨١٤ م تصدعت الامبراطورية الكارولنجية وذلك نتيجة العادة الجرمانية القديمة وهى تقسيم الملك بين أبناء الملك باعتباره ميراثاً شخصياً يوزع على ورثته من بعده . وإذا كانت الامبراطورية الكارولنجية قد آل حكمها بعد وفاة شارلمان إلى لويس التقى، فإن لويس التقى سرعان ماقام بتقسيم الدولة مرة أخرى عام ٨١٧م بين أبنائه الثلاثه ، وقد أثار هذا التقسيم النزاع والتخاصم بين أبناء لويس بعد وفاة والدهم ، فنشبت حروب وصراعات بينهم انتهت بعقد اتفاقية فردان عام ٨٤٣ م انقسمت الامبراطورية بمقتضاها إلى ثلاثة أقسام هى :

١- **القسم الغربى ويشمل** : نستريا واكوتين والماركية الأسبانية وهذه الأراضى اشتملتها فرنسا فيما بعد وحكمها شارل الأصلع .

٢- **القسم الشرقى ويشمل** : أوستراسيا وبافاريا وسوابيا وسكسونيا وهذه الأراضى اشتملتها ألمانيا فيما بعد وحكمها لويس .

٣- **أما القسم الثالث** فهو عبارة عن ممر طويل بينهما ويشمل مقاطعات فريزيا ولوتاريخيا وبرجنديا وبروفانس ولمبارديا وبقية إيطاليا من بحر الشمال إلى البحر المتوسط وحكمها لوثر الذى انقرضت سلالته فآلت أملاكه إلى ورثة أخويه .

المهم فى هذه الاتفاقية أنها حددت لنا فيما بعد مولد الدول الأوربية الحديثه خاصة كلاً من فرنسا وألمانيا ، كذلك كانت هذه الاتفاقية بمثابة إعلان

وفاة الامبراطورية الرومانية التى أحياها جدهم الأكبر شارلمان ، وعادت الانقسامات إلى أوربا من جديد فى ظل الدويلات الأوربية .

ومن أهم الأسر التى ظهرت بألمانيا بعد ذلك كانت أسرة السكسون التى حكمت ألمانيا بين عامى ٩١٩-١٠٥٦ م ، وبقيام هذه الأسرة بعثت من جديد فكرة إحياء الامبراطورية الرومانية مرة أخرى .

ويعتبر هنرى الأول الملقب بهنرى الصياد (٩١٩-٩٣٦م) هو أول ملوك هذه الأسرة . ويعود الفضل إليه فى وضع أسس السياسة الألمانية التى أدت إلى ظهور ألمانيا كدولة موحدة ذات سيادة خاصة على الأمراء المحليين، وعمل على إرساء سياسة خارجية ناجحة هيأت لخلفائه من بعده إحياء الامبراطورية الرومانية .

ومن الجدير بالذكر أن ألمانيا قبل عصر هنرى لايصح أن نطلق عليها اسم دولة ألمانيا ، وإنما كانت عبارة عن مجموعة من القبائل الألمانية لكل منها نزعاتها وأهدافها الخاصة ، لذلك كان يقع على من يتولى حكمها عبء كبير من أجل السيطرة على هذه القبائل وإخضاعها لسلطانه .

ومن بين الذين بذلوا جهداً فى سبيل إخضاع سائر القبائل الألمانية أرنولف الذى تولى حكم ألمانيا بين عامى ٨٧٧-٨٩٩م واستطاع السيطرة على مختلف القبائل الألمانية ، ونجح فى صد العناصر المغيرة ، وتوج امبراطوراً على ألمانيا عام ٨٩٦م ، لكن بعد وفاة أرنولف لم يستطع ابنه المسمى لويس الطفل (٨٩٩-٩١١م) - لأن عمره كان ست سنوات - كبح

جماح العناصر الألمانية الرامية إلى تحقيق رغباتها ونزعاتها ، بالإضافة إلى عجزه عن صد غارات المجريين الذين اجتاحوا بافاريا وسكسونيا وثورنجيا ، فنتج عن ذلك أن قامت كل مقاطعة بأمر الدفاع عن نفسها ، وبوفاة لويس الطفل انتقل حكم ألمانيا إلى كونراد الأول (٩١١-٩١٨م) دوق ولاية فرانكونيا ، ولم يستطع كونراد القبض على زمام الأمور داخل ألمانيا بسبب النزعات الانفصالية لمختلف الولايات من جهة ، ولزيادة الأخطار الخارجية من جهة أخرى . وكان أقوى أمراء ألمانيا والخصم العنيد لكونراد فى ذلك الوقت هنرى دوق سكسونيا ، ويبدو أن كونراد أدرك حقيقة أنه إذا أراد أن ينجو بألمانيا من ذلك الانهيار الذى تجابهه فلابد من أن يتولى أمرها أحد الأمراء الأقوياء ، لذلك لم يتردد كونراد وهو على فراش الموت فى ترشيح هنرى دوق سكسونيا وخصمه العنيد ليتولى حكم ألمانيا من بعده .

هنرى الأول ٩١٩-٩٣٦م :

أطلق على هنرى الأول لقب الصياد لولعه بصيد الطيور ، ويرى البعض أنه كان عديم الثقافة غير محباً لها ، كما لم يكن للكنيسة نصيب من رعايته ، وقد انصب تفكيره على القبض على زمام الأمور بألمانيا عن طريق ولاء مختلف الأمراء السكسونيين له ، وقد اعتبر نفسه زعيم إتحاد قبلى ، وهو بذلك يعيد من جديد التراث الجرمانى القديم . وهذا بالطبع يخالف الفكره التى قامت على أساسها الملكية الكارولنجية من قبل وهى فكرة العالمية .

وقد نجح هنرى الأول فى تحقيق أهدافه ، خاصة فى توطيد حكم أسرته ، والحد من استقلال الأمراء على حساب السلطة المركزية متبعاً فى ذلك كل الأساليب سواء كانت دبلوماسية أو عن طريق القوة . كما أن سياسة هنرى الخارجية نجحت نجاحاً ملحوظاً ، وعمل على تقوية جيش ألمانيا وأدخل بعض التجديدات فى النظم العسكرية ، كما قام بصد هجمات أعداء ألمانيا من المتبربرين ، وأقام عدة حصون عرفت باسم قلاع الحدود أو الماركيات Markes، وأصبحت هذه الماركيات بمثابة خط دفاع حصين قام بحماية ألمانيا من الأخطار الخارجية . ومن الجدير بالذكر فإن حكم هنرى الأول يعتبر بداية عهد جديد فى تاريخ ألمانيا .

أوتو الأول ٩٣٦ -٩٧٣م :

وقبل وفاة هنرى عام ٩٣٦ م أوصى أمراء دولته باختيار ابنه أوتو ملكا من بعده ، وبالفعل اجتمع الأمراء بعد وفاة هنرى الأول واختاروا ابنه أوتو ملكا على ألمانيا . ويعتبر ذلك نهاية لمبدأ الانتخاب وبداية لمبدأ وراثة الحكم.

ويعتبر حكم أوتو الأول لألمانيا من أهم فترات الحكم التى مرت عليها، فقد أعاد من جديد سيرة الامبراطورية الرومانية . فمنذ البداية جمع حوله الأمراء الاقطاعيين ، كما عمل على كسب ود الكنيسة ، وآثر أن يتم تتويجه على يد رئيس أساقفة آخن (اكس لاشابل) هيلدبرت Hildbert، ويبدو أن أوتو حرص على تتويجه فى آخن لأنها كانت العاصمة القديمة

للامبراطورية الكارولنجية ، وتم التتويج وفق الطقوس الدينية والتقاليد الكنسية، ومن ثم صارت الكنيسة سنداً للسلطة الملكية بألمانيا . وقد ساعد هذا الوضع على أن تحرز الكنيسة ورجالها سبقاً كبيراً فى ألمانيا خاصة عندما قرب أوتو إليه رجال الدين واعتمد عليهم اعتماداً كبيراً فى مختلف شئون الدولة ، وأصبحوا بمثابة مساعدين ومستشارين له فى الشئون الدينية والدنيوية على السواء ، كما أختار منهم من يتولى حكم بعض الكونتيات ، وبذلك جمع رجال الدين فى ألمانيا بين السلطتين المدنية والدينية فى آن واحد.

وقد أدت سياسة أوتو هذه إلى مزج الكنيسة بالدولة وجعل الملكية الألمانية مؤيدة من الكنيسة المسيحية ، واتخذ من المسيحية وسيلة لتوحيد الدولة .

كذلك بذل أوتو جهده من أجل إحكام سيطرته على سائر دوقيات ألمانيا والحد من سطوة بعض الأدواق عن طريق إنشاء دوقيات جديدة منحها لأصدقائه وأقربائه الأقوياء ، وبذلك ذاب الأدواق المتمردون فى محيط الأدواق الموالين للملكية ، وحاول الذين كانت تراودهم أفكار التمرد والعصيان أن يغيروا من سياستهم حتى لايظهروا قلة معارضه وسط جموع المؤيدين من أتباع أوتو - وبذلك نجح أوتو فى إحكام سيطرته على كل أنحاء ألمانيا .

ويتضح لنا من ذلك أن أوتو الأول تمتع بذكاء سياسى كبير ساعد فى إحكام قبضته على ألمانيا ، ويتضح ذلك منذ الأيام الأولى لتوليه منصب

الملكية عندما حاول عدد من الأدواق الحاقدين عليه إغراء أخيه هنرى بتدبير مؤامرة لخلع أوتو من العرش وأن يتولى مكانه ، وقد علم أوتو بهذه المؤامرة قبل تنفيذها فأحبطها قبل أن تتم ، ولم ينزل العقاب بأخيه هنرى وإنما عفى عنه فى حين كان بإمكانه إنزال أقصى العقاب به ، مما جعل كثير من الأدواق يغيرون من سياستهم المعادية له وينحازون إلى جانبه .

وعلى هذا النحو نجح أوتو الأول فى سياسته الداخلية نجاحاً ملحوظاً حيث جعل من ألمانيا وحدة واحدة وهى التى كانت وكما سبق أن ذكرنا بمثابة إتحاد قبلى تضم عدد من الدوقيات الاقطاعية الراغب حكامها فى الاستحواذ على أكبر قدر من السلطة والنفوذ نافرين من الخضوع للسلطة المركزية .

ولم يقل نجاح أوتو فى سياسته الخارجية عن سياسته الداخلية، فقد نجح فى صد هجوم أعداء ألمانيا ، وهاجم الدانمرك وبولندا وبوهيميا وأرغم حكامهم على الاعتراف بسيادته عليهم، مما جعل المعاصرون يذكرون أعمال شارلمان وما أحرزه من انتصارات خارجية ، أما النجاح الكبير الذى حققه أوتو فى سياسته الخارجية كان إحيائه للامبراطورية الرومانية المقدسة .

ومن البداية تجب الإشارة إلى أن أوتو تطلع إلىاللقب الامبراطورى وسعى إليه سعياً حثيثاً وحانت له الفرصة عندما دعته اديلايد Adelaide – أرملة لوثر حاكم مقاطعة لمبارديا الايطالية – لمساندتها ضد برنجار Berengar حاكم فريولى. ولم يتوان أوتو فى تلبية هذا الطلب ، فتوجه بجيشه على الفور إلى إيطاليا عام ٩٥١ م لتقديم المساعدة المطلوبة ، وأنزل بحاكم

فريولى هزيمة ساحقة ، ولم يشأ أوتو أن يقضى عليه قضاءً تاماً ، وإنما تركه ليكون بمثابة أمير اقطاعى تابع له، ولم يكتف اوتو بذلك، وإنما رأى أن المصلحة تقتضى أن يكون له نصيب فى حكم إيطاليا ، فعرض على الأرملة الحسناء اديلايد الزواج ، فوافقت اديلايد ، وبذلك ضم أوتو أملاكها فى إيطاليا إلى أملاكه فى ألمانيا ، وعلى هذا النحو أصبح لأوتو الحق فى حكم الأجزاء الشمالية من إيطاليا ، وأصبح قاب قوسين أو آدنى من التاج الامبراطورى ، لكن أحداث ألمانيا فى ذلك الوقت حالت دون تحقيق هذا الحلم الجميل .

فقد ظهر ضد أوتو حركة تمرد فى ألمانيا تزعمها أبنه لودلف Ludolf دوق سوابيا وكونراد الأحمر زوج ليوتجراد Liutgrade ابنة أوتو ، وكادت ألمانيا تخرج عن يد أوتو ، بالإضافة إلى ذلك كانت تحرشات المجريين بألمانيا قد أخذت فى الازدياد، وهنا آثر أوتو العودة سريعاً إلى ألمانيا تاركاً إيطاليا وتحقيق هدفه نحو إرتقاء عرش الامبراطورية مؤقتا وذلك من أجل الحفاظ على عرشه بألمانيا والقضاء على هذا التمرد . وبالفعل يعود أوتو ويقضى على هذا العصيان ومرة أخرى يضرب أوتو المثل فى الصفح والعفو عندما يعفو عن ابنه مثلما عفى من قبل عن أخيه هنرى ، ليزداد قوة فى نظر أمراء ألمانيا ، وبعد ذلك أخذ فى مهاجمة المجريين وأنزل بهم هزيمة ساحقة عند لخفلد Lechfeld عام٩٥٥م ، وبذلك استعاد أوتو سيادته فى الداخل والخارج .

ولم ينس أوتو حلمه القديم وهو حمل التاج الامبراطورى ، ولاحت له فرصة تحقيق هذا الحلم عام ٩٦١م عندما قام برنجار فى مناوئة البابا حنا الثانى عشر ومضايقة رجال الكنيسة . وماكان من استنجاد البابا حنا بقوة أوتو ضد برنجار ، وهذا يذكرنا باستنجاد البابا ليو الثالث بشارلمان عام ٧٩٩ م . ولم يشأ أوتو أن يضيع هذه الفرصة من يده ، فسارع بالتوجه إلى روما فى مطلع العام التالى (٩٦٢م) لحماية البابوية ، وفى مقابل ذلك قام البابا بمكافأة أوتو بتتويجه امبراطوراً فى فبراير من نفس العام . وقد تعهد أثناء تلقيه التاج بإعادة أملاك البابوية كاملة وفق هبة بين وشارلمان.

وبذلك حمل أوتو لقب الامبراطورية ، ونجح فى إحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة ، التى سبق وأن أقامها شارلمان من قبل عام ٨٠٠م ، غير أن إحياء الامبراطورية فى القرن العاشر قد جرت ورائها أحداث ومشاكل عديده لألمانيا ، وهى الأحداث التى شكلت تاريخ القرون الثلاثة المقبلة ، فقد عملت الامبراطورية على توطيد نفوذها فى إيطاليا وإحكام نفوذها عليها مما جعل مصالح الامبراطورية تصطدم بمصالح الكنيسة والبابوية بإيطاليا ، وهو الأمر الذى تبللور فى النهاية حول الصراع على السيادة العالمية .

ويبدو أن باكورة هذا الصراع حدثت فى زمن أوتو نفسه عندما توجه إلى إيطاليا عام ٩٦٣م وتخلص من البابا حنا الثانى عشر بالعزل من كرسى البابوية بعد إلحاح حنا عليه بإعادة أملاك البابوية وفق تعهده السابق ، وعين بدلاً منه البابا ليو الثامن ، غير أن حنا الثانى عشر لم يستسلم ، حيث انتهز

فرصة عودة أوتو إلى ألمانيا وقام بطرد ليو الثامن من روما وحل محله . وقد أثارت هذه الأوضاع الغيورين من رجال الكنيسه، فقاموا بانتخاب البابا بندكت الخامس دون استشارة أوتو. فأغضبت هذه الأحداث أوتو الذى عاد إلى إيطاليا ودعى إلى عقد مجمع كنسى تم فيه انتخاب بابا جديد هو حنا الثالث عشر (٩٦٥-٩٧٢م) ، ومن جهة أخرى فقد قلصت الامبراطورية أملاك البابوية وجعلتها قاصرة فقط على روما واقليم سابينا Sabina واستحوذت الامبراطورية على بقية الأملاك البابوية .

وجرياً وراء مبدأ وراثة الحكم بألمانيا ، وتجنباً لما يحدث من فوضى بعد وفاة أوتو الأول ، رأى أوتو أن يختار ابنه أوتو الثانى ملكا على ألمانيا وامبراطوراً على الامبراطورية من بعده ، وبالفعل تم تتويجه فى حياة والده عام ٩٦٧م بموافقة الأمراء ومباركة البابا حنا الثالث عشر . ولم يكتف أوتو الأول بذلك ، وإنما أراد أن يحقق فكرة الامبراطورية العالمية فتزوج أوتو الثانى من الأميرة ثيوفانو Theophano ابنة الامبراطور البيزنطى السابق رومانوس الثانى (٩٥٩-٩٦٢م) عام ٩٧٢م.

وبمقتضى هذا الزواج ضم أوتو أملاك الدولة البيزنطيه فى جنوب إيطاليا إلى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وبدأ لأوتو أيضا تحقيق ماهو أكثر من ذلك ألا وهو توحيد الامبراطورتين الشرقية والغربية ، وهو نفس الشىء الذى فكر فيه شارلمان من قبل عندما شرع فى الزواج من أيرين امبراطورة الدولة البيزنطية .

أوتو الثانى ٩٧٣-٩٨٣م

وكان الطريق مفتوحاً أمام أوتو الثانى لإرتقاء عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة بعد وفاة والده عام ٩٧٣م ، حيث كان امبراطوراً متوجاً فى حياه والده ، وإن كانت قد حدثت فى بداية حكم أوتو الثانى بعض الفتن التى أثارها عدد من الأدواق الساخطين على فكرة وراثة الحكم وكان أهمهم دوق بافاريا ودوق سوابيا ، غير أن أوتو الثانى نجح فى إخماد هذه الفتن عن طريق القوة من جهة ، وعن طريق الاستعانه برجال الدين من جهة أخرى .

ومن الملاحظ على عصر أوتو الثانى أنه استعان بصورة أكبر مما كانت فى زمن والده ، بالسلطة الكنسية ، حيث استخدم رجال الدين أداه فى الإدارة وشئون الحكم ، وساعد ذلك كثيراً على استتباب الأمن داخل البلاد . ومن الجدير بالذكر أن عصر أوتو الثانى اتصف بأنه عصر الاستقرار الداخلى ، ويعزو البعض هذا الاستقرار إلى إرساء فكرة وراثة الحكم ، لكن نفس هذه الفكره ستؤدى بعد ذلك إلى كثير من المشاكل داخل ألمانيا .

أما عن سياسة أوتو الخارجية ، فقد أثيرت بعض الخلافات بين فرنسا وألمانيا فى تلك الفترة ، حيث قامت فرنسا بغزو أراضى ألمانيا ، ولم تلبث هذه المشكلة أن انتهت بعقد صلح بين الطرفين . أما الخطر الخارجى الذى فشل أوتو فى التغلب عليه فقد جاء من ناحية جنوب إيطاليا، حيث كان المسلمون قد وصلوا الى درجة متقدمة فى ركوب البحر، وأصبحت البحرية الإسلامية تسيطر على الشواطئ الإسلامية بإفريقية ، ثم بدأت تتطلع لغزو

صقلية وجنوب إيطاليا ، ولم تطل حياة أوتو لنرى كيفية مواجهته لهذه المشكلة .

أوتو الثالث ٩٨٣-١٠٠٢م :

ورث أوتو الثالث العرش وهو فى الثالثه من عمره ، فتولت الوصاية عليه أمه ثيوفانو - الأميرة البيزنطية الأصل - فى الفترة من ٩٨٣إلى٩٩١م، ثم جدته اديلايد - اللومباردية الأصل - فى الفترة من ٩٩١م إلى ٩٩٦م ، بينما قام بتربيته وتعليمه جربرت Gerbert رئيس أساقفه رافنا - الفرنسى الأصل - وكان لهذا الخليط البيزنطى اللومباردى الفرنسى والدينى أثره فى شخصية أوتو الثالث الذى أطلق عليه فيما بعد نصف قسيس .

وبعد أن بلغ أوتو الثالث سن الرشد عام ٩٩٦م واستلم عرشه ، واجهته حركة إنفصالية كبرى فى إيطاليا ، وهو الأمر الذى دفع أوتو الثالث لتجهيز حملتين عسكريتين للقضاء على هذه الحركة الانفصالية ، وكانت حملته الأولى عام ٩٩٦م ، وحملته الثانية عام ٩٩٨م ، وفى الحملة الأخيرة استطاع أوتو القضاء على كرسنتيوس Crescentins زعيم هذه المؤامرة ، كما عين مؤدبه القديم جربرت بابا فى روما باسم سلفستر الثانى (٩٩٩ - ١٠٠٣م) وذلك بعد وفاة البابا جريجورى الخامس (٩٩٧-٩٩٩م) وقد عمل سلفستر على توثيق التعاون بين البابوية وبين الامبراطورية الرومانية المقدسة .

أما عن سياسة أوتو الثالث الداخلية ، فقد خطى أوتو خطوات كبيرة فى الاهتمام بالأدب والفن ، وهى النهضة التى كان والده أوتو الثانى قد بدأها من قبل .

ولم يعمر أوتو الثالث طويلاً فقد وافته المنيه عام ١٠٠٢م وله من العمر اثنان وعشرين عاماً دون أن يترك وريث من بعده فلم يتزوج وإنما اكتفى فقط باتخاذ أرملة كرسنتيوس - التى وقع فى حبها - عشيقه له !!

هنرى الثانى ١٠٠٢ - ١٠٢٤م :

على الرغم من أن أوتو الثالث لم يترك وريثاً من بعده يتولى حكم الامبراطورية الرومانية المقدسة ، إلا أن الأمراء قرروا الحفاظ على هذه الأسرة التى تولت حكم ألمانيا قرابة قرن من الزمان واستطاعت الحفاظ عليها من الأخطار الخارجية والداخلية ، لذلك رشحوا للعرش أحد أفراد هذه الأسرة وهو هنرى الثانى باعتباره أحد أفراد البيت السكسونى .

وهنرى الثانى هذا هو ابن هنرى رانجلر دوق بافاريا وابن عم أوتو الثالث وحفيد هنرى الصياد ، اشتهر بالزهد والورع والتقوى ، كما كان سياسيا حاذقاً .

سار هنرى الثانى على نفس سياسة أسلافه فى الاستعانه برجال الدين لكنه انغمس فى ذلك بصورة أكبر من أسلافه ، وساعده على ذلك اتجاهاته الدينية ، واهتمامه بحركات الإصلاح الدينى ، وكان أهم حركات الإصلاح

الدينى فى ذلك الوقت تلك الحركة التى تزعمها دير كلونى . وقد استطاع هنرى الثانى – من خلال سياسة هذه – بسط سيطرته على الكنيسة .

أما عن سياسة هنرى الثانى الخارجية فقد تركزت حول محاربة بعض العناصر السلافية والبولندية ، ثم انغماسه فى شئون إيطاليا حيث سادتها الاضطرابات ، مما جعله يذهب إليها مرتان الأولى عام ١٠٠٤م والثانية عام ١٠١٣م ، وقد ظل هنرى الثانى فى إيطاليا أثناء زيارته الثانية لإيطاليا إلى مطلع العام التالى حيث توجه البابا بندكت الثامن (١٠١٢-١٠٢٤م) امبراطوراً فى روما .

واستمر هنرى الثانى يحكم الامبراطورية الرومانية المقدسة اثنين وعشرين عاماً استطاع خلالها توطيد نفوذه بها ، وتوفى عام ١٠٢٤م دون وريث يتولى الحكم من بعده .

كونراد الثانى ١٠٢٤ – ١٠٣٩م :

بوفاة هنرى الثانى عام ١٠٢٤م تنتهى سلالة الأسرة السكسونية – من الذكور – التى سبق وأسسها هنرى الصياد عام ٩١٩م ، غير أن سائر الأمراء بألمانيا تمسكوا بولائهم لهذه الأسرة فاختاروا أحد الأمراء الذى يصل نسبه إلى الأسرة السكسونية من ناحية النساء ، وهو الأمير كونراد الثانى دون سوابيا وهو من أصل فرانكونى وينحدر من فرع إناث أوتو الأول السكسونى، وبذلك يبدأ عصر أسرة جديدة فى حكم ألمانيا ، وهى الأسرة الفرانكونية أو

السالية . ومن البداية تجب الإشارة إلى أن أمراء اللورين عارضوا معارضة شديده فى تولية كونراد عرش ألمانيا .

كان على كونراد الثانى القضاء على مختلف العناصر المناوئه له ، واتبع فى ذلك سياسة أسلافه من السكسونيين وهو التقرب إلى رجال الكنيسة وتنصيبهم فى مختلف الوظائف الدينية والمدنية ، ثم أخذ بعد ذلك يبسط سلطانه على مختلف أنحاء ألمانيا . ولم يبق خارجاً عن يده سوى إيطاليا التى كان نفوذ كونراد بها ضعيفاً ، ولم يكن فى إمكانه بسط نفوذه عليها إلا بعد التوجه إليها والقضاء على مابها من فتن .

وقد سارع كونراد بالتوجه إلى إيطاليا عام ١٠٢٦م واستطاع القضاء على نفوذ الأمراء المعارضين له بها ، كما توجه البابا فى العام التالى (عام ١٠٢٧م) امبراطوراً . ويبدو لنا أن كونراد الثانى سار على نفس سياسة أسلافه الذين اعتادوا زيارة إيطاليا وتأكيد سلطانهم بها وتلقيهم التاج من البابا فى روما ، لدرجه أن بعض المؤرخين لم يعتد بتتويج هؤلاء الحكام بيد الأمراء فى بداية حكمهم وإنما عولوا على تتويجهم بالتاج الممنوح من البابا فى روما ، غير أن البعض خالف ذلك ، واعتبر ملك ألمانيا امبراطوراً على الرومان بمجرد حصوله على التاج فى ألمانيا حتى ولو لم يتوج من قبل البابا أو أن يقوم الأخير بتأكيد اختياره امبراطوراً.

ولعل أهم مامیز سیاسة کونراد الثانی الداخلیة هو :

١- ترسیخه لمبدأ وراثة الحکم ، حیث قام بتوریث الحکم فی سلالته ، فلم یمر عامان علی تولیة کونراد الحکم حتی أقدم علی تعیین ابنه هنری الثالث عام ١٠٢٦م وریثاً له فی حکم ألمانیا وحصل علی موافقة کافة الأمراء علی ذلك .

٢- محاولة تکوین مجموعة من الأمراء والأتباع الموالین له وذلك عن طریق إنشاء اقطاعات جدیدة یمنحها لهؤلاء الأمراء من أراضی التاج .

٣- إعادة النظر فی علاقته برجال الکنیسة ، وأخذ فی تقلیم أظافر رجال الکنیسة بوقف الهبات والمنح التی اعتاد حکام ألمانیا تقدیمها لهم، وقلل من الاعتماد علیهم .

ومعنی ذلك فإن کونراد الثانی أنشأ فئه جدیدة من الأمراء یمکن أن نطلق علیها اسم " النباله الدنیا " وهم الذین قربهم إلیه ومنحهم الاقطاعات والهبات وجعلهم عوناً له ضد کبار الأمراء والأدواق الکبار ، وضد رجال الکنیسة أیضا . وبذلك یکون کونراد الثانی قد تخلی عن سیاسة أسلافه من السکسونیین فی الإعتماد علی رجال الدین ، ومن ناحیة أخری شغل رجال هذه الفئه الجدیدة " النبلاء ذوی الأصول الوضیعه " مختلف الوظائف بالجهاز الإداری بالامبراطوریة ، وکذلك کان منهم الفرسان المسلحین .

وعلی هذا النحو استطاع کونراد الثانی أن یقلل من شأن کبار الأمراء والدوقات ولم یستطع هؤلاء القیام بأی ثورات أو قلاقل ضد کونراد لأنهم لم

يجدوا التأييد من بقية الأمراء الموالين لكونراد ، وقد وضح ذلك جلياً عندما قام أرنست Ernst دوق سوابيا بثوره ضد كونراد ، فوقف إلى جانب كونراد سائر الكونتات والأمراء ذوى الأصول الوضيعه ، مما أسقط فى يد أرنست الذى لم يجد لنفسه نصيراً.

هنرى الثالث ١٠٣٩-١٠٥٦م :

تولى هنرى الثالث عرش الامبراطورية الرومانية بعد وفاة ابيه كونراد الثانى ، ونجح نجاحاً ملحوظاً فى حكم الامبراطورية لدرجة أن كثير من الباحثين يعتبر حكمه ذروة الحكم السالى أو الفرنكونى .

وبالنسبه للسياسة الخارجية فقد تخلص هنرى من المشاكل التى اعترضته من قبل العناصر التى تزعمت الثوره عليه ممثله فى رئيس أساقفة ميلان أربرت الذى أعلن ولائه لهنرى وطلب العفو وبداية صفحة جديدة من العلاقات الودية . وبذلك تم حل هذه المشكلة سلمياً . أما دوق بوهيميا برتسلاف Bretislav الذى أعلن نفسه ملكا، فلم يسع هنرى سوى استخدام القوة حتى أرغمه على الخضوع والاستسلام . كذلك تخلص هنرى من عصيان هنفاريا والذى تمثل فى تعيين ملك جديد عليهم منفصلين بذلك عن الامبراطورية . ومن الجدير بالذكر أن البابوية وقفت إلى جانب هنرى فى هذا الموقف ولم تعترف بهذا الملك الجديد المسمى أبا Aba والذى كان وثنياً وأصدر البابا قرار الحرمان ضد أبا هذا . ولم تفلح جهود أبا فى الحصول على اعتراف هنرى ، وإنما على العسك فقد قام هنرى بتجريد عدة حملات

على هنفاريا اضطرت أبا فى النهاية إلى الفرار، وتم تعيين ملك آخر على هنفاريا حاز ثقة هنرى وعادت بذلك هنفاريا إلى حظيرة الامبراطورية الرومانية . كذلك نجح هنرى الثالث فى بسط سيطرته على العناصر السلافيه. وبذلك استعادت الامبراطورية فى زمن هنرى الثالث سيطرتها وهيمنتها على معظم أراضيها فى غرب أوربا .

أما فى إيطاليا فقد دارت سياسة هنرى بها حول علاقته بالبابوية ، والواقع أن البابوية فى هذه المرحلة كانت تمر بأسوأ مراحلها ، ووصل بها الضعف والانهيار لدرجة بيع الوظيفه البابوية ، وحاول هنرى اصلاح هذا الأمر لكنه إنغمس وراء تعيين الباباوات وعزلهم ، لدرجة أنه فى عهد هنرى تم تعين ست باباوات ، ففى بداية عهد هنرى الثالث تولى بندكت التاسع الكرسى البابوى (١٠٤٥م) لكنه بعد عام واحد تنازل عن الكرسى البابوى نظير قدر من المال للبابا جريجورى السادس الذى شغل هذه الوظيفه لمدة عام واحد آخر. وخشى الغيورون من رجال الدين أن تستشرى هذه العادة السيئه – بيع الوظائف الدينية – فاستغاثوا بهنرى الثالث الذى حضر إلى إيطاليا ودعى إلى عقد مجمع كنسى أقر فيه تعيين بابا جديد هوكلمنت الثانى (١٠٤٧م) ، وقام كلمنت الثانى هذا بتتويج هنرى امبراطوراً ، لكن لم تطل حياه كلمنت فتوفى بعد قليل ، فقام هنرى بتعيين بابا آخر هو داماسوس الثانى (١٠٤٨م) ولم تطل حياته هوالآخر، فعين هنرى بابا آخرهو ليو التاسع (١٠٤٨-١٠٥٤م) ، وبعد وفاته عين فيكتور الثانى خلفاً له (١٠٥٤-١٠٥٧م) . ومعنى ذلك أن البابوية صارت العوبة فى يد أباطره

الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وهو ماسيكون له أثر سيئ فيما بعد خاصة عندما تحاول البابوبه بعد ذلك رفض فكرة السيطرة العلمانيه عليها ، مما عجل بالصدام بين البابوية والامبراطورية .

هنرى الرابع ١٠٥٦-١١٠٦م :

من الملاحظات الأولى على حكم هنرى الرابع أنه قد طالت مدة حكمه حيث وصلت إلى خمسين عاماً ، إلا أن الجزء الأول من حكمه وحتى عام ١٠٦٥م كان مسلوب الإرادة حيث تولى الحكم وهو طفل صغير فىالسادسه من عمره ، فتولت الوصاية عليه أمه بالإضافة إلى إثنان من الأساقفة . وفى تلك الفترة استعاد الأمراء نفوذهم وقوتهم السابقة واستعادوا بعض أراضيهم من التاج ، كذلك كانت فرصة أمام البابوية لاستعادة مكاسبها ومكانتها السابقة فى تعيين رجال الدين ورؤساء الأديرة ..

غير أن هنرى الرابع بمجرد أن بلغ سن الرشد ، أخذ فى استعادة قوته العسكرية ، فشن حرباً لاهوادة فيها على الأمراء الخارجين عن طاعته ، واستطاع فى النهاية السيطرة على مختلف ولايات الامبراطورية ، ثم توجه هنرى بعد ذلك إلى البابوية التى خرجت عن طاعة الامبراطورية منتهزة فرصة صغر سن الامبراطور - كما سبق أن أشرنا - وهو الأمر الذى أدى إلى وقوع الصدام بين البابوية والامبراطورية .

وقبل أن نتكلم عن هذا الصراع الذى احتدم بين البابوية والامبراطورية علينا أن نلقى الضوء أولاً على تلك الصحوة التى حدثت للبابوية .

صحوة البابوية

ارتبطت صحوة البابوية فى القرن الحادى عشر الميلادى بأربعة من الباباوات هم: ليو التاسع(١٠٤٨-١٠٥٤م) ، فكتور الثانى (١٠٥٤-١٠٥٧م)، ستيفن التاسع (١٠٥٧-١٠٥٨) ونيقولا الثانى (١٠٥٨-١٠٦١م)، ومن الطريف أن الذى سعى فى تعيين ليو التاسع ثم فكتور الثانى كان الامبراطور هنرى الثالث ، وكأنه سعى إلى إحياء قوة البابوية لتصارع الامبراطورية .

أما سبب ارتباط حركة الإصلاح البابوى بهؤلاء الباباوات هو إنتمائهم إلى الحركة الإصلاحية التى نبعت من دير كلونى ببرجنديا فى القرن العاشر الميلادى ، مما يجعلنا نعود إلى الوراء قليلاً لنلقى الضوء على حركة الإصلاح الكلونى .

كان أول تأسيس لدير كلونى عام ٩١٠م عندما أسس وليم التقى دون اكوتين هذا الدير الذى تجنب فى نظامه الأخطاء التى وقعت فيها سائر الأنظمة الديرية السابقة خاصة ما أصاب النظام البندكتى من تدهور ، فتشير المصادر إلى أن الأديرة البندكية نتيجة ازدياد ثروتها الناتجة عن أعمال الزراعة ، تكاسل رهبانها عن العمل ، وأعقب هذا التكاسل كثير من الفساد والتدهور .

لذلك توخى النظام الكلونى عدة أمور منها :

١- التحرر من سيطرة ونفوذ الأمراء الاقطاعيين أو الحكام، بحيث أنه رفض قبول منح أو هبات أو أراضى تكون مقرونة بشروط معينة من قبل الأمراء أو الحكام ، واشترط أن يكون منح هذه الهبات أو الأراضي فى مقابل ما سيناله مانحها من حسن الثواب.

٢- فرض الطاعة المطلقة على أعضاء الدير ، والطاعة هنا لمقدم الدير وليس للأمير أو الحاكم ، فقد حرص النظام الكلونى على ألايتبع النظام الكلونى السلطة المدنية وتكون تبعيتهم فقط للبابوية .

٣- اهتم النظام الكلونى بالعبادة وزاد من عدد الساعات المخصصة للصلاوات وذلك حتى يملأ فراغ الرهبان ويتدارك بعض ماخلفه النظام البندكتى من تخصيص ساعات مساوية للعمل خاصة بعد أن وجد بأراضى الدير أفناناً يرتبطون بالأراضى ويقومون بزراعتها مما ساعد على توفير وقت فراغ للرهبان داخل الدير.

٤- نشر العفه والتقوى والنظام داخل الدير، وهو الأمر الذى انعدم فى الأديرة فى تلك الفترة ، فقد أصاب الدير ما أصاب سائر المجتمع من اضطراب وفوضى ، وكان هناك إحتياج شديد إلى العودة إلى الطهاره والطاعة والنظام الذى عرفت به الحياه الديرية فى بداية عهدها.

ولم يلبث أن ذاع صيت هذه الحركة الديرية وأخذت فى الانتشار فى كل أنحاء الغرب الأوروبى وبدأت تتغلغل حتى داخل الأديرة البندكتية التى أخذت بهذا النظام ، والجدير بالذكر أن هذا النظام ظهر فى البداية كحركة

إصلاحية للنظام الديرى ، ثم بعد ذلك تطور نحو تصحيح ماتعرضت له الكنيسة من أخطاء .

وكان من بين أولئك الرهبان الكلونيين البابا ليو التاسع الذى قلده الكرسى البابوى الامبراطور هنرى الثالث ، وقد اعتنق ليو أفكار وآراء تجعل من البابوية قوه كبيرة تسمو فوق الجميع . وحاول ليو تحقيق عالمية البابوية من ذلك أنه وسع دائرة نشاط البابوية فلم يحصرها فى إيطاليا، ولم يقصر الوظائف الدينية على الرهبان الإيطاليين وإنما عين غير الايطاليين فى مختلف الوظائف الدينية ، كما عقد المجامع الكنسية أيضا خارج إيطاليا حيث عقدها فى كل من فرنسا وألمانيا، وحالف النورمان الذين أسسوا لهم أخيراً دولة فى جنوب إيطاليا . وهكذا بدأ ليو التاسع تحقيق فكرة سمو المنصب البابوى. وإذا كان ليو التاسع قد توفى عام ١٠٥٤م فإن خليفته فكتور الثانى سار على نهجه فى إتباع الفكر الكلونى فى تحقيق السمو البابوى.

أما التطور الهام الذى حدث للبابوية كان بعد وفاة هنرى الثالث عام ١٠٥٦م ، خاصة بعد أن تولى عرش الامبراطورية الامبراطور الطفل هنرى الرابع الذى لم يبلغ السادسه من عمره ، فإنتهزت البابوية الفرصة وأخذت تحقق بعض الانتصارات على طريق السمو البابوى كان أهمها القرار الذى اتخذه البابا فكتور الثانى عام ١٠٥٩م وهو أن يكون اختيار البابا من حق هيئة الكرادله فقط دون غيرهم من رجال الدين وبعيداً عن يد السلطة الزمنية .

ويرى كثير من الباحثين فـى هذا القرار خطـورة كبيرة خاصـة وأن السياسة العليا فى الدوائر الكنسية صارت بيد الكاردنيال هلدبرانت الذى عرف بصرامته وحدته .

ويعود هلدبرانت هذا إلى تسكانيا حيث بدأ حياتـه فـى ريـف تسكانيا وعاش حياه كلها خشونة ، ثم التحق بالدير وأخذ يتقلب فـى الوظـائف الدينيـة مطبقاً التعاليم الكلونية فى سيرته الدينية . وقد وصف هلدبرانت بالذكاء وسـعة الحيلة ، وقد أثبت جداره حقيقية فى كل الوظائف التـى تولاهـا إلـى أن وصـل إلى منصب الكاردنيال، وكان لكل هذه الصفات أثره فى المنـاداة بـه بابـا عـام ١٠٧٣م تحت اسم جريجورى السابع .

وقد أخذ جريجورى السابع منذ اعتلائه كرسى البابوية فى العمل على إصلاح أحوال الكنيسة فى ذلك الوقت . وتركزت حركة الإصلاح التى قادها جريجورى السابع حول عدة أعمال :

أولاً : مناشدة رجال الدين مراعـاة حيـاة العزوبيـة ومبـدأ عـدم زواج رجال الدين ، وقد طبق هذا المبدأ فـى بـادىء الأمر على الرهبان وهم الذين أطلـق عليهـم رجـال الديـن النظـاميين لإنتظـامهم فـى العبـادة داخـل الأديـرة والانقطاع عن الدنيا . وكان الهدف من وراء ذلـك الانقطـاع التـام عـن الدنيـا والانصراف للعباده، وكذلك للحفاظ على ثروة وأوقاف الكنيسة حتى لايجعلهـا رجال الدين ورائيه . غير أن قسماً آخر من رجال الديـن وهـم القـائمين علـى أمور الوعظ والارشاد والصلاة داخل الكنائس لم تشملهم عادة العزوبـه وعـدم

الزواج ، وإنما تزوجوا وكونوا أسرات ، كما كونوا أيضا ثروات وانصرفوا عن القيام بأعمالهم الدينية على خير وجه إلى جمع الثروه لهم ولأولادهم من بعدهم . لذلك رأت البابوية ضرورة معالجة هذا الأمر الخطير الذى يؤثر - بلاشك - على قدرة رجل الدين فى قيامه بمهامه الدينية . وقد شرعت البابوية فى معالجه هذا الأمر فى عهد البابا نيقولا الثانى حيث أصدر قراراً عام ١٠٥٩م بمنع حضور الاحتفالات الدينية التى يشرف عليها الأساقفة المتزوجين ، ثم شرع جريجورى بعد ذلك فى معالجه هذا الأمر الذى اعتبره بمثابة خطر كبير يهدد الكنيسة المسيحية .

ثانياً : تفشت فى الكنيسة فى تلك الفترة السيمونية ، وهى تعنى المتاجره فى الوظائف الدينية ، وقد أخذت هذه العادة أسمها من سيمون الساحر ، حيث ورد فى الانجيل (الاصحاح الثامن - أعمال الرسل) أنه حاول اغراء القديس بطرس بمبلغ من المال لقاء أن يبارك له عمله ، فرفض القديس بطرس وقال : " انك هالك مع فضتك لانك تحاول الحصول على بركة الله بالدراهم ، لذلك اعتبرت الكنيسة كل من يحاول الحصول على أعمال أو وظائف دينيه مقابل دفع الأموال خارج عن الدين ووصفت ذلك بالسيمونية نسبة إلى سيمون الساحر هذا.

وقد أصدر ليو التاسع عام ١٠٤٩م رسوماً يؤكد فيه تحريم الاجراءات السيمونية ، ثم شرع جريجورى السابع أيضا فى إعلان حرب لاهوادة فيها ضد هذه العادة .

ثالثاً : لقد آمن جريجورى السابع ايماناً مطلقاً بفكرة السموالبابوى ، ويأتى هذا من منطلق المبادئ الكلونية ، فنحن قد عرضنا سابقاً إلى أنه من أهم المبادئ التى دعى إليها النظام الكلونى هو عدم سيطرة الأمراء والحكام على الهيئات الدينية ، وأن سلطة رجل الدين لاتأتى من الأمير أو الحاكم ، وإنما سلطه يستمدها من الله مباشرة ، وقد ساعد على ترسيخ هذه المبادئ عدد من البابارات كان أهمهم جريجورى السابع الذى بذ ل جهداً كبيراً من أجل تطبيق هذه الفكره ، لأن تطبيق هذه الأفكار يؤدى إلى الخروج عن طاعة الأمبراطور واصطدامه بالسلطة الزمنية ، وهو الذى فتح باب الصراع بين البابوية والامبراطورية.

الصراع بين البابوية والامبراطورية

نتج عن تلك الصحوة التى دبت فى البابوية ومحاولة التخلص من بعض الأخطاء التى أحاطت بها أن أخذ الصدام يأخذ مجراه بين البابوية والسلطة الزمنية المتمثله فى الامبراطورية الرومانية المقدسه، وهو الصراع الذى بدأ منذ أواخر القرن الحادى عشر واستمر حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلاديين ، وسنحاول إلقاء الضوء على بعض المراحل التى مر بها هذا الصراع .

أولاً : المرحلة الأولى :

عند إعتلاء البابا جريجورى السابع كرسى البابوية عام ١٠٧٣م كان الامبراطور هنرى الرابع قد بلغ عامه الثالث والعشرون وقد تخلص من نفوذ أدالبرت رئيس أساقفة برمن الذى توفى فى العام الماضى (١٠٧٢م) والذى فرض سيطرته الكامله على شئون الكنيسة والدولة جميعاً . وبذلك خلا المسرح لهنرى الرابع لبسط سلطانه على الامبراطورية، لكن الأحداث التى مربها هنرى جعلته يفقد ثقته فى كثير من الأمراء خاصة المناطق الشمالية من ألمانيا ، واعتمد اعتماداً كبيراً على مجموعة من أمراء سوابيا – فى الجنوب من ألمانيا – وهى دوقيه أجداده، كما اكثر من تشييد القلاع والحصون فى شمال ألمانيا خاصة فىسكسونيا وثورنجيا وحشدها بالجنود السوابيين الذين دأبوا على الاعتداء على الأهالىالآمنيين . مما أدى إلى حدوث الفتن بتلك البلاد ، لكن هنرى الذى تغلب على هذه القلاقل رأى أن يقبض على زمام

الأمور بيد من حديد فمال إلى الحكم الاستبدادى مما جعل سائر الأمراء ينفرون منه خاصة فى سكسونيا.

وشاء القدر أن تعاصر هذه الأحداث ما أقدم عليه جريجورى السابع من إجراءات أدت إلى حدوث صراع بينه وبين هنرى الرابع، مما ساعد على أن ينتهز هؤلاء الأمراء المعارضين لسياسة هنرى هذا الوضع فانحازوا إلى جانب البابوية مما زاد البابوية قوة .

ومن الملاحظ أن العلاقة بين الرجلين (هنرى الرابع وجريجورى السابع) تميزت بالود والهدوء فى البداية ، فلم يسمع هنرى لحديث أساقفة ألمانيا الرامى إلى عدم شرعية تعيين جريجورى السابع لأنه لم ينتخب بالطريقة إلى نص عليه مجمع روما عام١٠٥٩ م ، حيث اختاره البابا السابق اسكندر الثانى مما دفع جموع المصليين بالمناداة به بابا. ويبدو أن أساقفة ألمانيا خشوا من حدة وصرامة جريجورى السابع لذلك أوغروا إلىهنرى بعدم الموافقة على تعيينه ، لكن هنرى الرابع رفض السير وراء أساقفة ألمانيا وطلب فقط الوقوف على حقيقة أمر تعيين جريجورى ثم وافق بعد ذلك على تعيينه فى كرسى البابوية ، وساعد على هدوء الموقف أن جريجورى هو الآخر تريث فى تحركاته وتصرفاته فلم يكمل مراسيم توليه الكرسى البابوى إلابعد أن وافق هنرى الرابع.

لكن لم تلبث الأمور أن تغيرت واحتدمت بين الرجلين بعد فتره وجيزه من هذه البداية الطيبة ، ودار الصراع بين الرجلين حول التقليد

العلمانى، وهو قيام السلطة الزمنية الممثلة فى الامبراطور أو من ينوب عنه من حكام الأقاليم فى تقليد رجال الدين وظائفهم الدينية .

وكان من أهم الأمور التى أولاها جريجورى السابع اهتمامه هو أن تشرف البابوية إشرافاً فعليا على كل مايتصل بالكنيسة من أمور ويأتى فى مقدمتها تقليد الوظائف الدينية .

لذلك أصدر جريجورى السابع فى مجمع روما عام ١٠٥٧م قراراً خطيراً فى هذا الشأن تضمن طرد وحرمان أى رجل من رجال الدين يتولى وظيفته عن طريق السلطة الزمنية ، كما شمل القرار أيضا السلطة الزمنية نفسها ، حيث تقرر إنزال عقوبة الحرمان على كل فرد من رجال السلطة الزمنية يقلد رجل الدين وظيفته.

وكان معنى هذا القرار فتح باب الصراع بين البابوية والامبراطورية، فلم يمض وقت طويل حتى شغرت بعض الأسقفيات فى شمال إيطاليا، واحتدم الصراع بين الامبراطور والبابا حول تعيين هؤلاء الأساقفة . ثم ازداد الصراع حده عندما عين هنرى الرابع أسقفاً جديداً لميلان مما أثار البابا جريجورى السابع ، فأرسل إلى هنرى الرابع ينذره ويتوعده مما أغضب هنرى ودعاه إلى عقد مجمع دينى فى ورمز فى مطلع عام ١٠٧٦م قرر فيه بطلان تعيين البابا جريجورى السابع وعزله من منصبه ، وكان أن رد جريجورى السابع على قرار هنرى السابق، بعقد مجمع دينى فى الفاتيكان فى نفس العام قرر فيه توقيع عقوبةالحرمان علىهنرى الرابع وعزله من منصبه.

وقرار الحرمان يعنى أن يصبح الامبراطور محروما من الكنيسة مقطوعاً منها ، ويتبع ذلك خروج كافة أتباعه وأفصاله عن طاعته ، وبالتالى يعزل من عرش الامبراطورية.

ومن الجدير بالذكر أن جريجورى السابع لم يقدم على اتخاذ هذا القرار إلا بعد تأكده من وقوف عدد كبير من الأمراء إلى جانبه خاصة الرافضين لمبدأ وراثة الحكم.

وبالفعل سارع عدد كبير من أمراء ألمانيا بعقد مؤتمر فى اكتوبر عام ١٠٧٦م فى مدينة تريبور حضره مندوبان عن البابا ، قرروا فيه الخروج عن طاعة هنرى وإنزاره بأنه إن لم يغفر له البابا فى مدة أقصاها ٢٢فبراير عام ١٠٧٧م سوف يقومون باختيار ملك غيره، على أن يقضى المدة من اكتوبر ١٠٧٦م إلى فبراير ١٠٧٧م فى أحد الأديرة حتى يتطهر من ذنوبه، واتفق الأمراء على أن يعودوا إلى الاجتماع فى مدينة أو جزبرج فى فبراير القادم(عام ١٠٧٧م) على أن يحضر هذا الاجتماع معهم البابا ليقرر مصير هنرى واختيار ملك آخر إن لم يصفح عنه جريجورى السابع.

وكان رد الفعل عنيفاً، فقد عمت الفوض ألمانيا ، ووقع هنرى الرابع فى مأزق شديد، فمن ناحية أصبح محروماً من الكنيسة خارجاً عن رحمتها ، ومن ناحية أخرى خرج عليه أتباعه وامراؤه لأنه أصبح محروماً من الكنيسة منبوذاً من المجتمع ، فكان عليه أن يعمل بأقصى سرعه قبل فوات المدة القليلة التى لم تتجاوز خمسة أشهر.

أما جريجورى السابع فلاشك أن هذه الأحداث المتلاحقة التى أعقبت قراره بحرمان هنرى قد أشبعت رغباته فى الوصول إلى السمو البابوى ، وأنه أصبح صاحب إلحق فى تقرير مصير الامبراطورية .

وما أن حل العام الجديد (١٠٧٧م) وقد قرب موعد انعقاد الاجتماع الذى حدده الأمراء ، إلا وأخذ هنرى يفكر فى عمل يفوت به على الأمراء فرصتهم فى خلعه من العرش واختيار ملك آخر على ألمانيا، فلم يجد سوى السعى إلى البابا وطلب العفو منه .

وبالفعل أخذ هنرى فى تنفيذ هذه الفكره، فأرسل إلى البابا يخبره بالاستعداد للقدوم إلى روما طلباً للعفو ، غير أن البابا اعتذر لسفره إلى أو جزبرج ، وبالفعل استعد البابا للسفر وخرج من روما ماراً بتوسكانيا حيث حل ضيفا على اميرتها ماتيلدا التى كانت حليفه قويه للبابوية وتشكل سنداً قوياً لها ، وعندما علم هنرى بهذه التطورات وأن البابا خرج من روما بالفعل ، سارع بالذهاب لمقابلة البابا قبل اتفاق البابا مع الأمراء ضده فى أوجزبرج، وذلك على الرغم من شدة برودة الشتاء ووعورة الطريق ، أما البابا فما أن علم بقدوم هنرى حتى احتمى بقلعة كانوسا خوفاً من هنرى إذا ماتطور الأمر بينهما.

أما هنرى فقد تابع سيره حيث أخذ فى الصعود إلى قلعة كانوساً الواقعه اعلى مرتفعات تسكانيا ، وتجشم فى ذلك عناء كبير حيث البرد القارص والطريق الشاق ، وما أن وصل إلى القلعه وسمح له البابا بمقابلته

حتى أعلن ندمه وطلب الصفح من البابا الذى غفر له ورفع عنه عقوبة الحرمان .

عاد هنرى بعد هذه المقابلة التى وصفها كثير من المؤرخين بأنها إذلال للامبراطور أمام البابا ، عاد ليعلن فوزه بعفو البابا مفوتاً بذلك الفرصة على الأمراء بعزله عن حكم ألمانيا .

غير أن أمراء ألمانيا رفضوا حصول هنرى على العفو بهذه الطريقه، حيث خدعهم هنرى ولم يلتزم بالبقاء داخل الدير كما سبق وأن قرروا ، لذلك رأوا عزل هنرى الرابع من حكم ألمانيا وتولية ملكاً أخراً هو رودلف Rudolph دوق سوابيا . ويبدو لنا أن الأمراء كان لايهمهم حصول هنرى على العفو بطريقه أوبأخرى بقدر مايهمهم استرجاع حقهم المفقود فى اختيار الملك الجديد، وهو التقليد الجرمانى القديم ، وعدم عودة النظام الوراثى ، واتضح هذا جلياً من العهد الذى قطعه رودلف على نفسه قبل تعيينه ملكاً على ألمانيا حيث أنه تعهد بعدم جعل الملكية وراثيه فى عقبه من بعده ، كما تعهد أيضا بإرجاع حقوق هؤلاء الأمراء التى فقدوها فى ظل الملكية الألمانية .

وقد بدأ رودلف كسيد اقطاعى لاكملك !! أى أن كافة مظاهر الملكية الألمانية اختفت تماماً زمن رودلف، وبذلك تحطمت الملكية الألمانية تماماً خلال هذه الفترة .

كما أن ألمانيا دخلت فى حرب أهلية ولمدة ثلاثين عاماً (١٠٧٦-١١٠٦م) شهدت خلالها تحولاً كبيراً فى التركيبة الاجتماعية ، حيث غدا

المجتمع مجتمعاً اقطاعياً ، وانتشرت القلاع فى كل مكان ، واختفى الفلاحون الاحرار، وصار صغار النبلاء بمثابة فرسان وارتبطوا بالساده الاقطاعيين بروابط التبعية . وهكذا خسرت الملكية الألمانية الشيء الكثير نتيجة هذه الانقسامات التى شهدتها ألمانيا.

أما هنرى الرابع فإن عناده وصلابته ساعداه كثيراً فى الاستمرار فى موقعه كملك لألمانيا، وإذا كان رودلف السوابى قد حاز تأييد أمراء سكسونيا، فإن هنرى الرابع أخذ يستعيد انصاره فى معظم أنحاء ألمانيا، وهم الذين عابوا على البابا قسوته وتشدده على هنرى . وبذلك اشتعلت نار الحرب بين هنرى الرابع ورودلف ، وكانت الجوله الأولى عند فلارخهايم Flarchneim فى يناير عام ١٠٨٠م حيث حلت الهزيمة بجيش هنرى ، وهنا تحمس جريجورى السابع وأعلن رأيه بصراحة فيما يجرى فى ألمانيا وتأييده لرودلف وقرر إعادة قرار الحرمان ضد هنرى وقرر عزله عن حكم الامبراطورية.

ولم يقف هنرى ساكناً هو الآخر إزاء هذه التطورت ، فدعى إلى عقد مجمع دينى، دعى إليه أنصاره من أساقفة ألمانيا وشمال إيطاليا ، قرر فيه عزل جريجورى السابع من الكرسى البابوى واختيارجيوبرت رئيس أساقفة رافنا ليتولى كرسى البابوية تحت اسم كلمنت الثالث.

وأعقب ذلك دخول هنرى فى معركه حاميه ضد منافسه رودلف لقى فيها رودلف حتفه عند نهر الستر Elster اكتوبر عام ١٠٨٠م ، ثم سارع هنرى يتعقب خصمه اللدود جريجورى السابع ، فتوجه إلى إيطاليا ودخل

روما ، وخشى جريجورى على حياته فطلب مساعدة حلفائه فى جنوب إيطاليا من النورمان ، لكن النورمان كانوا مشغولين عنه بمعاركهم مع البيزنطيين ، فتحصن جريجورى بقلعة روما الحصينه (سانت أنجيليو)، واكتفى هنرى بأن نال التاج الامبراطورى بيد البابا كلمنت الثالث فى روما ، ثم آثر العودة إلى ألمانيا مغادراً إيطاليا قبل وصول النورمان اليها الذى ألح البابا عليهم فى سرعة الحضور لنجدته .

أما أمراء ألمانيا خاصة أمراء سكسونيا الراغبين فى الحصول على أكبر قدر من التحرر والتمسك بحقهم فى اختيار الملك ، فقد رفضوا الخضوع لهنرى ، لذلك بعد وفاة رودلف عام ١٠٨٠م فضلوا اختيار هرمان دوق لكسمبرج ، وبعد وفاته هو الآخر عام ١١٠٤ م حرض الأمراء ابنى هنرى على الخروج عن طاعة أبيهم ، واستطاعوا أن يجذبوا اليهم هنرى ابن هنرى الرابع ، واختاروه ملكا على ألمانيا عام ١١٠٥م ، وإذا كان الأمراء قد اختاروا هنرى الخامس ملكا على ألمانيا فلا يعتبر هذا بصفته وريثاً للحكم ، ولكن بصفته متمرداً على أبيه هنرى الرابع .

ويبدو أن هنرى الرابع كان قد وصل إلى مرحلة متقدمة من السن لاتسمح له بالدخول فى صراع مع ابنه هنرى الخامس ، فتنازل له عن الحكم، ثم لم يلبث أن توفى هنرى الرابع فى العام التالى (١١٠٦م) فانفرد هنرى الخامس بحكم ألمانيا ، ولايعنى ذلك عودة الملكية الوراثية إلى ألمانيا ، فقد وعد هنرى الخامس الأمراء خاصة أمراء سكسونيا بأن يعيد العدالة لكل فرد فى ألمانيا.

وبالنسبه لجريجورى السابع فلم يستطع البقاء فى روما ، فرحل عنها إلى جنوب إيطاليا حيث قضى بقية أيامه فى استضافه النورمان، وذلك بسبب الخراب الذى حل بروما بعد دخول النورمان اليها وما سببوه من نهب وسلب وتدمير وتخريب لكثير من أحيائها ، وفى جنوب إيطاليا توفى جريجورى عام ١٠٨٥م.

وعلى هذا النحو تنتهى المرحلة الأولى من مراحل الصراع بين الامبراطورية والبابوية ، وهى المرحلة التى تزعمها هنرى الرابع وجريجورى السابع والتى انتهت بإذلال الامبراطور فى كانوسا ، وبانهيار النظام الملكى بألمانيا .

لكن هل معنى ذلك إنهاء للصراع بين البابوية والامبراطورية ؟ فى واقع الأمر أن فكرة الصراع بين البابوية وبين الامبراطورية هى صراع حول فكرة ظلت راسخة فى أذهان الباباوات وأذهان حكام ألمانيا وهى فكرة السمو وهى فكره لم ترتبط بشخص معين، لذلك أخذت تعلو وتخبو حسب شخصيات الأباطرة والباباوات.

ومن الجدير بالذكر أن هنرى الخامس (١١٠٦-١١٢٥م) بعد أن استقرت له الأحوال بألمانيا ، استأنف نضال أبيه من أجل ترسيخ حق الامبراطورية فى تقليد رجال الدين وظائفهم ، وقد ساعد على عدم تصاعد الخلاف وتزايد حدة الصراع أن معاصرى هنرى الخامس من الباباوات لم تكن لديهم حدة وصرامة جريجورى السابع .

فقد عاصر هنرى الخامس عدد من الباباوات كان فى مقدمتهم البابا باسكال الثانى (١٠٩٩-١١١٨م) الذى لم يكن فى قوة جريجورى السابع وصلابته ، ففضل الاتفاق مع الامبراطور وتوصل معه إلى إتفاق ينص على أن تتنازل الكنيسة عن أراضيها وحقوقها الاقطاعيّة فى مقابل احتفاظها بحقها فى تقليد الأساقفة وظائفهم ، ويتضح لنا من هذه الاتفاقية أن البابوية كانت على استعداد للتضحية بممتلكاتها فى مقابل احتفاظها بحقها فى تقليد رجال الدين وظائفهم ، وقد بادر هنرى الخامس فى الموافقة على هذا العرض الذى سيتيح له فرصة الاستيلاء على الممتلكات البابوية دون منازع ، وبالفعل اتجه هنرى الخامس إلى روما للتوقيع على هذه الاتفاقيه، وأن يتوج امبراطوراً عام ١١١١م .

غير أن الأساقفة عارضوا هذه الاتفاقية التى ستفقدهم اراضيهم وحقوقهم الاقطاعية ، فثاروا ضد البابا الأمر الذى جعل البابا يعدل عن هذه الاتفاقية ، مما أغضب الامبراطور هنرى الخامس وألقى القبض على البابا والكرادله وأجبرهم على الرضوخ له ، فوافق البابا على أن يكون الامبراطور هو صاحب الحق فى تقليد الأساقفة وظائفهم .

وما أن تخلص البابا من الامبراطور بعودة الأخير إلى ألمانيا حتى أعلن بطلان هذه الاتفاقية لأنها تمت تحت إرهاب وضغط الامبراطور. ولم تسفر الأحداث التى تلت ذلك عن تقارب بين الرجلين .

وكان أن تولى كرسى البابوية البابا كالكستس الثانى (١١١٩-١١٢٤م) الذى تمتع بمهارة سياسية فائقة ، واستطاع التوصل إلى حل مع هنرى الخامس على مسألة التقليد العلمانى، أما هذا الحل فقد تمثل فى اتفاقية ورمز عام ١٢٢ ١م التى نصت على أن يكون انتخاب رجال الذين خارج ألمانيا وفق القانون الكنسى دون تدخل من جانب السلطة الزمنية ، وبعد أن يتم تقليد رجل الدين وظيفته يقوم الامبراطور أو من ينوب عنه بتزويده بالنصائح المطلوبة ، أما فى ألمانيا فيتم انتخاب الأساقفة بحضور مندوب عن السلطة الزمنية ، ثم بعد ذلك يقوم الامبراطور أو من ينوب عنه بتقليده وظيفته .

ومن نصوص الاتفاقية السابقة يتضح لنا عدم انتصار فريق على الآخر وإنما حصل كل فريق على جزء من النصر ، وبذلك لم تحل مشكله التقليد العلمانى التى دارات أساساً حول مبدأ السمو من منهم أسمى البابا أم الامبراطور ؟ وبمعنى آخر تم تأجيل حل هذه المشكلة إلى جولة أخرى من جولات الصراع بين البابوية والامبراطورية.

الامبراطور فردريك بربروسا والمرحلة الثانية من مراحل الصراع بين البابوية والامبراطورية

بعد أن تولى فردريك بربروسا عرش ألمانيا (١١٥٢- ١١٩٠)، أخذ فى استعادة حقوقه الاقطاعية التى تسربت منذ أمد ، فالمعروف أنه بعد وفاة هنرى الخامس (١١٢٥م) وقع اختيار الأمراء والمندوب البابوى على لوثر دوق سكسونيا ليكون ملكا على ألمانيا (١١٢٥-١١٣٧م) مبتعدين عن فكرة وراثة الحكم مؤكدين حقهم فى انتخاب الملك ضاربين عرض الحائط بوصية هنرى الخامس بأن تخلفه فردريك السوابى الهوهنشتاوفنى.

وقد حاول لوثر هذا استرضاء الأمراء والبابوية على حساب أملاك التاج وهيبة الملكية ، فوزع الأراضى الملكية على الأمراء لجذبهم إليه ، وارتمى فى أحضان الكنيسة مقدماً لها تنازلات كثيره . وبذلك خسرت الملكية الألمانية ماحققته زمن هنرى الخامس بمقتضى اتفاقية ورمز عام ١١٢٥م ، كما تنازل للكنيسة عن أملاك الأميرة مايتلدا التى ادعت اليابوية حقها فى امتلاكها ، وذلك مقابل تتويجه بيد البابا انوسنت الثانى عام ١١٣٣م.

وإذا كان لوثر قد قرب إليه هنرى المتكبر Henry che proud الولفى دوق بافاريا والذى كان من اكثر مؤيدى لوثر ، وزاد من هذا التقارب زواج هنرى من ابنة لوثر وريثته الوحيده ، وضم إليه عدة أملاك مثل دوقيه تسكانيا وبذلك تهيأت الفرصة أمام هنرى لأن يخلف لوثر فى حكم ألمانيا ، وخاصة وأن لوثر أوصى قبل وفاته بأن يخلفه فى حكم ألمانيا هنرى الولفى .

غير أن الأمراء تأكيدا منهم لحق الانتخاب ورفضهم مبدأ وراثة الحكم وخوفاً من هنرى ذو الشخصية القوية حيث وصف فى التاريخ بالمتكبر، ولأن مصلحتهم فى أن تظل الملكية ضعيفة ليحققوا من وراء ذلك مكاسب شخصية، رفضوا الموافقة على توليه هنرى عرش ألمانيا، ومن الجدير بالذكر أن الكنيسة أيدت الأمراء فى رفضهم لتولى هنرى عرش ألمانيا، وذلك خوفاً من قوة هنرى ، وأخيراً وقع اختيار الأمراء على كونراد دوق سوابيا الهوهنشتاوفنى ليكون ملكاً على ألمانيا الذى تلقب بكونراد الثالث .

أما كونراد الثالث (١١٣٧-١١٥٢م) فقد اتصف بضعف شخصيته ولجوئه إلى نفس اسلوب سلفه لوثر فى التقرب إلى الأمراء وإقامة حزب مناصر له مناوئا للولفيين . والمعروف أنه كان هناك عداء بين الولفيين والهوهنشتاوفيين .

ولم يستفد كونراد ولا الملكية الألمانية من هذا الوضع وإنما ازداد ضعفا ، بينما ازداد هنرى المتكبر قوه بعد انتصاره فى الحرب الأهلية التى اندلعت بينه وبين كونراد الثالث . أما الكنيسة فقد غدت تحتل كياناً اقطاعياً، ولم يعد للأساقفه أدنى ولاء للتاج .

وعند وفاة كونراد الثالث عام ١١٥٢ م رفض الأمراء إختيار ابنه الأكبر ، وإنما اختاروا لعرش ألمانيا ابن أخيه فردريك دوق سوابيا الذى تلقب بفردريك بربروسا نسبة إلى لحيته الحمراء . ويبدو أن الأمراء لم يكن لديهم بديل يختارونه ملكا على عرش ألمانيا إلا فى البيت الولفى ، وقد خشوا من

ذلك خاصة وأن هنرى الأسد بن هنرى المتكبر الولفى وهو الذى تمتع بشخصية تفوق شخصية والده ، مما جعل الأمراء ينصرفون عنه إلى فردريك دوق سوابيا الذين رأوا فيه فرصة لوقف الحرب الأهلية خاصة أن فردريك السوابى تمتع بحب الولفيين لأن والدته كانت أخت هنرى المتكبر ، لذلك علق الأمراء آمال عراض على فردريك بربروسا فى استعادة الهدوء والنظام إلى ألمانيا .

وقد بدأ فردريك بربروسا (١١٥٢- ١١٩٠م) عهده بداية هادئة حيث اعترف بحقوق هنرى الأسد فى الأراضى التى سيطر عليها ، مما جعل الولفيين يقفون إلى جواره ، كذلك استطاع أن يجمع مختلف الأمراء إلى جانبه . لكن هذه البداية لم تكن انعكاساً حقيقاً لمشاعره ، فقد آمن فردريك بحقوق الملكية ، وأخذ يعمل على استعادة تلك الحقوق التى فقدت منذ أيام هنرى الخامس.

كما أن فردريك بربروسا بدأ كذلك بداية هادئة مع البابوية حيث عقد معاهده كونستانس عام ١١٥٣م مع البابا انستاسيوس الرابع (١١٥٣- ١١٥٤م) تعهد فيها بالوقوف إلى جوار البابا فى مقابل تتويج الأخير له امبراطوراً.

ومن جهة اخرى فقد أخذ فردريك فى إحياء المشكلة الأزلية بينه وبين البابوية وهى مشكله السمو ، عندما أعلن تمسكه بكل حقوق الامبراطورية المترتبه على اتفاقية ورمز عام ١١٢٢م ، ولذلك شرع فى عزل الأساقفة

التابعين للبابوية ، فى حين أخذ فى تعيين أساقفه تابعن له ، مما أفزع البابا أدريان الرابع (١١٥٤-١١٥٩م).

وزاد من الخلافات بين البابوية والامبراطورية محاولة فردريك تثبيت دعائم الملكية الألمانية فى المدن اللومباردية التى ادعت البابوية أحقيتها فى حكمها، وشكلت البابوية من المدن اللومباردية حلفاً مناوئاً للامبراطور. فما كان من فردريك أن قاد حملة عسكرية إلى شمال إيطاليا عام ١١٥٤م انتصر فيها على المدن اللومباردية المتمردة على التاج الألمانى ، ثم ذهابه إلى روما لإخضاعها لحكم البابوية ، غير أن ثورة روما كانت أكبر بكثير من قوته فآثر العودة إلى ألمانيا.

وفى تلك الأثناء حدثت عدة أحداث ساعدت على زيادة الشقاق بين البابوية والامبراطورية نذكر منها :

أولاً : شعور الغضب الذى آحاط بالامبراطور عندما أشار البابا إلى أن الأراضى الايطالية التابعة للتاج الملكى ماهى إلا إحسان من الكنيسة .

ثانياً : غضب البابا من الامبراطور عندما أعلن الأخير أنه يستمد التاج الملكى من الله مباشرة وليس من البابا .

ثالثاً : استياء البابا من الامبراطور عندما رفض الأخير التنازل للبابا عن قسم من الممتلكات اللومباردية .

ثم ازداد العداء بين البابوية والامبراطورية بعد وفاة البابا ادريان الرابع وولاية الاسكندر الثالث الكرسى البابوى (١١٥٩-١١٨١م) ، ولم يكن الأخير سوى الكاردينال رولاند الذىأدى إلى حدوث الخلافات السابقة بين الامبراطورية والبابوية ، وقد آمن البابا الاسكندر الثالث ايماناً كاملاً بمبادئ السمو البابوى ، وبذل جهداً كبيراً من أجل تحقيق هذا الهدف ، مما دفع الامبراطور إلى السعى نحو تعيين بابا امبراطورى منافس للاسكندر الثالث .

وقد انتهز الاسكندر الثالث فرصة تحالف المدن اللومباردية ضد الحكم الألمانى بزعامة مدينة ميلان ، فانضم إلى هذا الحلف الذى عرف باسم حلف عصبة المدن اللومباردية . وقد حاول الامبراطور تهديد هذا الحلف وإنزال ضربه قاسمه به ، فجهز حملة عسكرية إلى إيطاليا عام ١١٧٦م - وهى الحملة الخامسة التى قادها ضد إيطاليا - لكنه منى بهزيمة ساحقة عند لينانو Legnano ، وترتب على هذه الهزيمة تكرار مشهد كانوسا دون أن يمعن البابا فى اذلال الامبراطور كما فعل جريجورى السابع ، لكن هذه المرة فى مدينة البندقية على يد البابا الاسكندر الثالث عام ١١٧٧م ، حيث تقابل الامبراطور بمدينة البندقية مع البابا الاسكندر الثالث وطلب منه الصفح والغفران ، وتم الصلح بين البابوية والامبراطورية على أن يرد فردريك جميع أراضى البابوية ، ووافق الطرفان على أن يقف كل منهما إلى جانب الآخر .

وقد استطاع فردريك بربروسا - بعد أن هدأت العلاقات بينه وبين البابوية تحقيق بعض الانتصارات السياسية يأتى فى مقدمتها تخلصه من منافسه وعدوه اللدود هنرى الأسد عندما أنزل به هزيمة شديده أدت إلى تحطيمه عام ١١٨٠م ، كما أنه استطاع عقد زيجة سياسية ناجحة مع النورمان بصقلية ، حيث تم زواج هنرى بن فردريك بربروسا من الأميرة كونستانس ابنة ووريثة ملك صقلية وليم الثانى ، كذلك تفكك الحلف اللومباردى الذى سبق وأنزل بفردريك هزيمة لينانو ، وبذلك استراح فردريك من مشاكل المدن اللومباردية.

الامبراطور فردريك الثانى والمرحلة الثالثة من مراحل الصراع بين البابوية والامبراطورية

بعد وفاة فردريك بربروسا عام ١١٩٠ م تولى عرش ألمانيا من بعده ابنه هنرى السادس (١١٩٠- ١١٩٧م)١ الذى ورث عن أبيه فكرة إحياء مجد الامبراطورية . وكان شغله الشاغل هو ترسيخ مبدأ وراثة الحكم ، ذلك المبدأ الذى تزعزع فى الآونة الأخيرة ، كما وجه جهده أيضا نحو تدعيم نفوذ الامبراطورية فى جنوب إيطاليا حيث أملاك زوجته الأميرة كونستانس .

وقد استطاع هنرى فى السنوات القليلة التى حكمها تحقيق أهدافه ، حيث نجح فى حكم مملكة الصقليتين - جنوب إيطاليا وصقلية - كما رسخ اقدامه فى ألمانيا خاصة بعد وفاة منافسه هنرى الأسد ، وساعده على ذلك ضعف شخصية البابا كالستين الثالث (١١٩١-١١٩٨م) الذى كان معاصراً لهنرى السادس ، كما نجح أيضا فى الحصول على موافقة الأمراء والبابوية عام ١١٩٦م فى أن يخلفه ابنه فردريك الثانى فى حكم الامبراطورية وكان فردريك حينئذ طفل صغير لم يبلغ من العمر عامين فقط.

ولم تطل حياة هنرى السادس إذ توفى فى العام التالى (١١٩٧م) معتقداً أنه أمن الطريق أمام ابنه فردريك الثانى غير أن الأمور لم تسر كما رسم لها هنرى السادس ، وقد ساعد على ذلك صغر سن ابنه فردريك الثانى مما أدى إلى طمع الطامعين فى عرش ألمانيا .

أما هؤلاء الطامعون فكان أولهم فيليب دوق سوابيا أخو هنري السادس وعم فردريك الثانى ، الذى خشى على عرش ألمانيا من الضياع من يد الهوهنشتاوفيين ، ولذلك اختاره بعض الأمراء ملكا على ألمانيا عام ١١٩٨م ، لكن صارعه فى ذلك أوتو بن هنرى الأسد . وبذلك أصبح على عرش ألمانيا ثلاثة حكام أولهم فردريك الثانى الذى مازال صغيراً الذى خشيت والدته كونستانس عليه وآثرت أن تبعد به عن حلبة الصراع حيث اصطحبته إلى مملكه والدها فى أبوليا وصقلية ، مما أفسح المجال أمام الحاكم الثانى فيليب دوق سوابيا ، والحاكم الثالث أوتو بن هنرى الاسد الذى تلقب بأوتو الرابع ، حيث أخذ الأثنان فى التنافس من أجل الاستحواذ على حكم ألمانيا ، وتطور الأمر إلى نشوب حربأهلية استمرت عشر سنوات ، فاز خلالها فيليب الهوهنشتاوفنى ، لكنه لم يهنأ بهذا النصر حيث قتل بعد قليل عام ١٢٠٧م ، فأفسح بذلك المجال أمام أوتو الرابع الذى عمل على توطيد نفوذ فى ألمانيا بالزواج من ابنة فيليب، وبتحالفه مع البابوية وتذلله للبابا أنوسنت الثالث وإقراره بأحقية البابوية فى تقليد رجال الدين لوظائفهم الدينية ، وتعهده بعدم التدخل فى إنتخاباتهم ، ولذلك وافق البابا على تتويجه امبراطوراً على عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة عام ١٢٠٩م.

ومن الجدير بالذكر أن البابوية من البداية وقفت خلال الحرب الأهلية التى نشبت فى ألمانيا مع أوتو وأعلن أنوسنت الثالث أن أوتو أفضل المرشحين . ويبدو أن البابا كان يؤيد أوتو ضد فيليب حتى لايؤكد فكرة وراثة الحكم ، كما أن عدم ثبات مبدأ الوراثة يؤدى إلى استمرار الاضطرابات فى

ألمانيا مما يساعد على ضعف الملكية والسلطة الزمنية وهذا فى صالح البابويه. وبطبيعة الحال ساعد الوضع المتدهور للامبراطورية إلى إزدياد قوة البابوية ، ومما زاد من قوة البابوية فى تلك الفترة قوة شخصية البابا انوسنت الثالث .

وقد بدأ باب النزاع بين البابوية والامبراطورية يفتح من جديد بعد تتويج أوتو الرابع امبراطوراً عام ١٢٠٩م، وسبب ذلك أن أوتو الرابع أثناء صراعه من أجل الوصول إلى الحكم أظهر تعاطفاً مع البابوية وقبل الموافقة على كثير من طلباتها خاصة أحقية البابوية فى تقليد رجال الدين وعدم تدخل السلطة الزمنية فى ذلك . لكن بمجرد إقراره فى حكم ألمانيا كشف أوتو الرابع عن وجهة الحقيقى وسياسته الراميه إلى تثبيت حق الامبراطورية فى تقليد الأساقفة وظائفهم، وهى نفس السياسة التى سار عليها الهوهنشتاوفيين السابقيين على الرغم من كونه ولفى الأصل ، وعرف عن الولفيين إنحيازهم إلى جانب البابوية وتأييدهم لمطالبها ، وبهذا خدع أوتو الرابع البابا انوسنت الثالث .

وقد تبللور الصراع فى تلك الفترة حول أملاك الأميرة ماتيلدا التى استولت عليها البابوية ، واعتبر أوتو الرابع هذا الوضع تعدى على حق الامبراطورية ، وطالب باسترجاع ممتلكات الأميرة ماتيلدا ، وقام بحملة عسكرية على تسكانيا من أجل استعادة هذه الأملاك.

ولم يقف البابا أنوسنت الثالث مكتوف اليدين أمام تصرفات أوتو الرابع ، فأنزل به قرار الحرمان عام ١٢١٠ م ، وقررعزله من عرش الامبراطورية ، وتولية صاحب الحق الشرعى وهو فردريك الثانى .

أما فردريك الثانى هذا فقد سبق أن اشرنا إلى أن والدته كونستانس خشت على حياته أثناء الصراع على الحكم ، وآثرت أن تصطحبه معها إلى مملكه الصقليتين، وخطبت ود البابوية وعاشت فى كنفها . واستمر فردريك مقيماً بصقلية حيث تلقى تعليمه على يد معلم مسلم داخل هذه الجزيرة التى كانت تعج بالتيارات الإسلامية المختلفة . وعندما أحست كونستانس بدنو أجلها، أوصت قبل وفاتها عام ١١٩٨م بأن يتولى البابا آنوسنت الوصاية على ولدها فردريك الثانى .

ومعنى ذلك أن فردريك الثانى ارتبط مع البابوية بعلاقة طيبة منذ أن كان صغيراً ، ولذلك لم يكن من الصعب على البابا انوسنت الثالث أن يقع اختياره على فردريك لكى يتولى عرش أجداده بعد أن تأزم الموقف بين البابوية والامبراطور أوتو الرابع . وقد اشترط البابا على فردريك عدة شروط فى مقابل توليه عرش الامبراطورية كان أولها ضرورة الفصل بين العرش الألمانى وحكم الصقليتين ، وثانيها تعهد فردريك بالقيام بحملة صليبية على الشرق لمحو عار هزيمة الحملة الصليبية الخامسة . وقد وافق فردريك على كل شروط البابوية .

أما أمراء ألمانيا فقد رحبوا بقرار البابا فى توليه فردريك الثانى عرش ألمانيا (١٢١٢-١٢٥٠م) ، وقرروا عزل أوتو الرابع المحروم من الكنيسة ، واستقبلوا فردريك استقبالاً حافلاً الذى توجه إلى ألمانيا حيث تـوج امبراطوراً عام ١٢١٢م بيد رئيس أساقفه مينز ، واستطاع الانتصار على خصمه أوتو الرابع الذى رفض الاستسلام بسهوله وذلك بمساعدة فيليب اوغسطس ملك فرنسا .

وبعد أن استراح فردريك الثانى من أوتو الرابع الذى توفى عام ١٢١٨م، أخذ فردريك فى التمكين لنفسه واستعادة حقوق الامبراطورية الرومانية ، وبسط سيادته الفعليه على إيطاليا وصقلية وهى أملاكه التى ورثها عن والدته ، كل ذلك أثار حفيظة البابوية عليه ، وفتح باب الصراع بينه وبين البابا .

ومن سوء حظ فردريك الثانى أنه عاصر طوال حكمه الطويل الذى امتد حتى وفاته عام ١٢٥٠م خمسة باباوات تمسكوا جميعا بمبدأ السمو البابوى - من ذلك مثلاً البابا أنوسنت الثالث الذى اعتبر نفسه خليفة الله على الأرض ، وأن الحكام والملوك ماهم إلا اتباعه وعماله - ، مما ادى إلى دخولهم فى صراع مع فردريك الذى أراد إحياء قوة الامبراطورية وتمسك بكامل حقوقه فى إيطاليا .

ومما زاد من حدة الصراع أن فردريك الثانى كان قد قطع على نفسه عهداً للبابوية بالقيام بحملة صليبية إلى الشرق لمحو عار هزيمة الحملة

الصليبية الخامسة – كما سبق أن أشرنا ويبدو أن سبب مماطلة فردريك يعود إلى عدم رغبته الحقيقية فى محاربة المسلمين حيث كانت تربطه بالمسلمين فى صقلية وكذلك فى الشرق خاصة الملك الكامل محمد سلطان الدولة الأيوبية علاقات الود، كما أن مشاغله فى ألمانيا وثورة المدن اللومباردية ضده ومحاولاتها المستمرة فى الخروج عن طاعته جعلته يركز اهتمامه فى إيطاليا وألمانيا .

ولم يقبل البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) مماطلة فردريك السابقة فى الخروج على رأس الحملة الصليبية التى وعد بها، وأخذ يلح عليه فى الخروج، ويبدو أن فردريك بعد أن خرج على رأس حملته إلى الشرق عاد وأدعى المرض ، مما جعل البابا يعتبر هذا تمارض، وأصدر ضده قرار الحرمان عام ١٢٢٧م ، لكن هذا القرار لم يفت فى جلد وعزيمه فردريك فخرج بعد ذلك على رأس حملة هى أشبه بنزهه لأن عددها كان لايزيد عن ستمائه فارس فقط يمثلون حرسه الخاص ، وتوجه إلى الشرق حيث أصدقائه من المسلمين ، واستطاع أن يحصل خلال هذه الحملة التى تأخذ فى التاريخ رقم ٦ (أى الحملة الصليبية السادسه) استطاع أن يحصل سلماً على بيت المقدس من صديقه الملك الكامل، وتعمد فردريك زيارة كنيسة القيامة حيث توج نفسه بنفسه امبراطوراً عام ١٢٢٩م، ليعلن بأنه تلقى التاج من الله وليس من رجال الدين.

عاد فردريك من حملته فى الشرق إلى أوربا أقوى من ذى قبل ، مما دفع البابا أن يرفع عنه قرار الحرمان ويعقد معه صلحاً فى سان جرمانو عام

١٢٣٠م ، وتعهد فردريك بمقتضى هذا الصلح بالزود عن أملاك البابوية . لكن هذا الصلح لم يتعرض للمشكلة الأساسية وهي السيادة لمن للبابا أم للامبراطور ، لذلك ثار الصراع مرة اخرى بين البابوية والامبراطورية عندما وقفت المدن اللومبارية موقفاً معادياً من الامبراطور حيث كانت ترمى إلى الخروج عن طاعة الامبراطور ، مما دفع الامبراطور إلى توجيه حملة عسكرية ضخمه ضد المدن اللومباردية حيث انزل بهم هزيمة ساحقة عند كورتنوفا Cortenuova بالقرب من ميلان . ومن ثم صار الطريق مفتوحاً أمام الامبراطور للوصول إلى روما ، عنئذ خشى البابا جريجورى التاسع على نفسه فأصدر قرار الحرمان ضد فردريك الثانى عام ١٢٣٩م،وأخذ فى إثارة المتاعب فى وجه فردريك داخل ألمانيا وخارجها .

غير أن محاولات البابوية فشلت فى إضعاف شأن فردريك الثانى ، وفى نفس الوقت فشلت كل المحاولات المبذولة فى التوفيق بين الرجلين . واستمر هذا الوضع إلى وفاة البابا جريجورى التاسع عام ١٢٤١م.

وإذا كان البابا انوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) قد واصل مسيرة جريجورى التاسع فى الصراع مع الامبراطورية إلا أن كفه فردريك كانت الراجحه خاصة فى إيطاليا ، مما دفع البابا إلى إثارة الأساقفة وامراء ألمانيا ضد فردريك ،لكن دون أن يحقق نجاحاً فى ذلك ، واستمرت الخلافات والمناوشات بين البابوية والامبراطور فردريك الثانى حتى وفاة الأخير عام ١٢٥٠م.

ويرى كثير من المؤرخين أنه بوفاة فردريك الثانى عام ١٢٥٠ م انتهت من الوجهة العمليه فكرة الامبراطورية الرومانية المقدسة ولم يعد ثمة صراع بين البابوية والامبراطورية خاصة بعد أن أنهك فردريك ومن قبله اباطره الامبراطورية الرومانية المقدسة أنفسهم من اجل الوصول إلى فكرة الامبراطورية العالمية .

وكلمه أخيره وهى أن فردريك الثانى عاصر حكمه وجود باباوات اصحاب سطوة كبيرة ونفوذ قوى ، فلو لم يكن فردريك متمتع بشخصية قويه وذكاء خارق لما استطاع الصمود حتى النهاية .

النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية

يطلق اسم الشماليين Northmen - أوائل العصور الوسطى - على مجوعة الشعوب التى سكنت شبه جزيرة اسكندناوه وحوض البحر البلطى ، والشماليين مثلهم مثل الجرمان من الجنس النوردى ، غير أنهم على خلاف الجرمان لم يتأثروا بالمؤثرات اللاتينية وإنما ظلوا بعيدين عنها بحكم وضعهم الجغرافى فى أقصى الشمال الغربى - أوربا ، وهو الوضع الجغرافى الذى جاءت منه تسميتهم. ثم تحرك الشماليون من هذا الموطن حركة هبطت بهم إلى المسرح الأوربى فى كثير من العنف ، وكانوا وقتذاك وثنيون .

وقد حاول الامبراطور لويس الورع - التقى - ابن شارلمان تحويل اسكندناوه والشماليين إلى المسيحية وذلك عن طريق العلاقات الوديه ، فأقام علاقات وديه مع ملك الدانيين - أحد اقسام الشماليين - هارولد ، وارسل عدة بعثات تبشيريه لنشر المسيحية فى تلك الأماكن ، واستطاعت هذه البعثات التبشيريه نشر المسيحية فى بعض أماكن اسكندناوه .

ثم بدأ هؤلاء الشماليون زحفهم تجاه الجنوب وانقسموا إلى عدة أقسام فإتجه السويديون إلى سهول روسيا ، بينما أخذ الدانيون والنريجيون الذين عرفوا باسم الفيكنج طريقهم إلى غرب أوربا ، وكان ذلك فى القرن الثامن الميلادى.

ونتيجة الضعف والانهيار الذى أصاب الامبراطورية الكارولبخيه فى القرن التاسع الميلادى ، استفاد الشماليون استفاده كبيرة حيث استقروا فى عدة مناطق على حساب أراضى الامبراطورية الكارولنجية .

واستطاع الشماليون عقد معاهده مع شارل الثالث (البسيط) عام ٩١١م تنازل لهم بمقتضاها عن المنطقة الممتدة من ابت إلى حدود بريتانى، وهى التى عرفت باسم نورمنديا أو أرض الشماليين .

ولم يقف نشاط الشماليين (النورمان) عند هذا الحد وإنما تطلعوا إلى إيطاليا بعد ذلك .

استيلاء النورمان على صقلية :

أما هؤلاء النورمان فهم من إقليم الشمال ، موطنهم الأصلى إقليم عرف باسم " نورمنديا " وكان أول ظهور لهم فى إيطاليا عام ١١٠٦م/٤٠٧هـ أثناء عودة أربعين حاجا نورمانيا من أداء فريضة الحج ببيت المقدس ، واشتراكهم مع ميليو أحد مواطنى مدينى بارى فى الانتصار على القوات البيزنطية انتصاراً كبيراً اكسبهم شهرة فائقة فى إيطاليا كجند محاربين، مما دفع ميليو وأعوانه إلى دعوة هؤلاء النورمان للاقامة معهم فى جنوب إيطاليا ، غير أنهم اعتذروا عن ذلك ووعدوا بارسال بعض أقرانهم ممن اشتهروا أيضا بالبسالة ، كما أنهم رفضوا أخذ ماعرض عليهم من مكافأة نظير ماقاموا به ، وذلك لأنهم فعلوا ذلك محبة لله ، واكتفوا بأخذ بعض الهدايا القليلة من منتجات جنوب إيطاليا .

وبعد أن وصل هؤلاء الفرسان إلى وطنهم الأصلى حاملين معهم الأقمشة الثمينة والسروج الذهبية والفضية وغيرها من الهدايا الثمينة التى أخذوها من جنوب إيطاليا ، قصوا على أهليهم ماشاهدوه فى جنوب إيطاليا

من ضعف وفوضى وتفكك وسعة فى العيش ، الأمر الذى أغرى كثيراً من الطموحين على الهجرة من نورمنديا إلى جنوب إيطاليا .

ويشير جيبون Gibbon إلى أن الدافع وراء هجرات النورمان هو الاحتياج بالنسبة للفقراء والأمل والطموح بالنسبة للأغنياء، والجميع متشبعين بالروح النورمانية وقوامها الصبر والبساطة والطموح . وسرعان ما أسس النورمان مدينة أفرسا Aversa عام ١٠٣٠ م - ٤٢٢هـ بعد أن منحها دوق نابولى لرانولف زعيم النورمان .

وفى هذا الموطن الجديد لم يلبث أن ازداد عدد المهاجرين النورمان من ناحية كما ازداد نشاطهم فى أعمال السلب والنهب من ناحية أخرى . ثم انتقلت زعامة النورمان إلى روبرت جويسكارد سليل أسرة هو تيفيل Houteville ، الذى أخذ يبنى لنفسه دولة قوية فى أبوليا وكالبريا على حساب أمراء إيطاليا المحليين من جهة والنواب البيزنطيين من جهة أخرى.

ولم تلبث البابوية أن اعترفت بمركزه عام ١٠٥١م - ٤٥١هـ مكافأة له على مساعدته إياها ، وفى تلك الأثناء ظهر أخوه روجر فى جنوب إيطاليا، حيث كان يشرف على بعض الكتائب النورمانيه وفتح قلوريه ، وكان روجر هذا كأخيه الأكبر روبرت جويسكارد على جانب كبير من الكفاية الحربية وسرعان ما أقام لنفسه دولة نورمانية قوية فى قلوريه . ومن جنوب إيطاليا تطلع روجر إلى صقلية حيث الموقع الجغرافى الهام فى حوض البحر المتوسط الغربى ، ويبدو أن البابوية باركت استيلاء النورمان على صقلية ،

حيث تعتبر الحرب فى هذا الميدان حرباً مقدسة وقد فطن المؤرخ المدقق ابن الأثير إلى هذا الوضع ، فحينما بدأ تاريخه للحروب الصليبية وخروج الصليبيين إلى الشام، رجع بحديثه إلى وقت استيلاء (الفرنج) أى الصليبيين – على كل من أسبانيا وصقلية واعتبر الحرب فى هذه الميادين حرباً صليبية.

وسرعان ماجاءت الفرصة لروجر لغزو صقلية من داخل صقلية نفسها ، فالثابت تاريخياً أنه بعد رحيل الفاطميين إلى القاهرة وإتخاذها عاصمة لهم ، فترت العلاقات بعض الشئ بين ولاة صقلية وبين مقر الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، وأصبح هم الفاطميين مركزاً فى تحصيل الأموال المقررة على صقلية سنوياً ، فى حين أنقسم حكام صقلية من الأسرة الكلبية على أنفسهم ونشب صراع بين قادتهم ، وأدى هذا الانقسام وذلك الصراع إلى ارتمائهم فى النهاية فى أحضان روجر النورمانى حاكم قلورية . وتفصيل ذلك أنه فى عام ٣٧٩هـ/٩٨٩م أقر الخليفة العزيز بالله الفاطمى على ولاية صقلية الأمير أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد احمد ، الذى اصيب فى عام ٣٨٨هـ /٩٤٩م بمرض أقعده عن ممارسة مهام منصبه ، فأناب عنه فى حكم صقلية ابنه جعفر ، فثار عليه أخ له يدعى عليا ، واستعان بالبربر والعبيد ، فى حين وقف أهل صقلية إلى جانب جعفر بعد أن استمالهم إلى جانبه ، وإنتهى الأمر بقتل على وانتصار جعفر والصقليين ، وعزم جعفر على تطهير صقلية من كافة البربر والعبيد ، وأمر بنفى كل البربر والعبيد إلى افريقية فى حين " جعل جنده كلهم من أهل صقلية " . ولكن أهل صقلية لم يلبثوا أن ثاروا عليه بسبب استبداد أحد قادته بالحكم ومصادرته لأموالهم وأخذ الأعشار من

غلاتهم والاستخفاف بشيوخهم، وقد خشى أبو الفتوح يوسف على إبنه جعفر من ثورة أهل صقلية عليه ، فخرج اليهم وطيب خاطرهم وقرر عزل جعفر من ولاية صقلية وولى مكانه أبنه أحمد الأكحل ، وكان ذلك عام ٤١٠هـ/ ١٠١٩ م . ولم يلبث أن وقف أهل صقلية موقف المعاداة من أحمد الأكحل هو الآخر وذلك بسبب سياسة أخيه جعفر التى أثارت الصقليين . فقد قرب إليه الأفريقيين وأقصد بهم العرب والبربر الذين أتوا من صقلية ، وخصهم بالمناصب الحكومية وأعفى أراضيهم من الخراج ، على حين أخذ الخراج من أملاك أهل صقلية فثار عليه أهل صقلية ، واتجه بعضهم إلى المعزبن باديس الزيرى عام ٤٢٧هـ/١٠٣٥م للاستعانة به ضد أحمد الأكحل ، وأجابهم المعز بن باديس وسير معهم جيشاً بقيادة إبنه عبد الله ، الذى أنزل الهزيمة بأحمد الأكحل بمدينة الخالصة، غير أن بقية أهل صقلية رأوا فى دخول جيش المعز بن باديس إلى صقلية شيئا دخيلا عليهم ، فعزموا على مقاتلة جيش المعز بن باديس ، وأنزلوا الهزيمة به، مما أضطر معه عبد الله بن المعز إلى العودة بمن بقى معه من جند إلى أفريقية . فى حين قبض أهل صقلية على زمام الأمور بصقلية ، وعزلوا أحمد الأكحل ونصبوا مكانه أخيه الحسن الصمصام، الذى كان من الضعف بحيث استقل قادة صقلية بما تحت أيديهم من بلاد ، فاستقل القائد عبد الله بن منكوت بمدينة مازر وطربنش ، وانفرد القائد على بن نعمة المعروف بابن الحواس بمديتى قصربانه وجرجنت ،فى حين حكم محمد ابن الثمنه سرقوسه وقطانيه، وتزوج ابن الثمنة بأخت إبن الحواس حاكم قصربانة وجرجنت .

وحدث فى أحد الأيام ان اعتدى ابن الثمنة فى لحظة سكر على زوجته أخت إبن الحواس ، وأراد قتلها ، ثم مالبث أن عاد وصالحها بعد إفاقته من سكره ، غير أن زوجة إبن الثمنة أسرت فى نفسها هذا العدوان، وأخبرت أخاها بهذه الحادثة عند زيارتها له بعد ذلك ، فأشار عليها أخوها محمد بن الحواس بعدم الرجوع إلى زوجها ابن الثمنة فإنتهز ابن الثمنة فرصة عصيان زوجته عليه وتشجيع أخيها ابن الحواس لها ، وجهز جيشاً كبيراً سيره إلى قصريانه وجرجنت لإنتزاعهما من يد ابن الحواس ، وذلك لتوحيد كل مدن جزيرة صقلية تحت يده ،وخاصة بعد إستيلائه على معظم مدن صقلية ولم يبق خارجا عن يده سوى قصر يانه وجرجنت غير أن الهزيمة لحقت بجيش ابن الثمنة وتمزقت قواته شر ممزق ، فسولت له نفسه الانتصار بالكفار - وفق رواية ابن الاثير - والكفار هنا هم النورمان.

ومعنى هذا أنه كان لاضطراب الأمور ببلاد صقلية وللصراع الذى وقع بين حكامها ، نتائج خطيرة على تاريخ صقلية ، إذ كان سببا فى إستقدام النورمان إليها.

غير أن أحد المؤرخين يذكر لنا سببا آخر فى إستقدام النورمان إلى صقلية ، فيشير سبط الجوزى صاحب كتاب مرآة الزمان ، إلى أن أحد ولاة صقلية من قبل الفاطميين ويدعى ابن البعباع ، أرسل إليه الخليفة الفاطمى يطلب منه الأموال المقررة على صقلية ، ولم يكن لدى ابن البعباع الأموال الكافية ، فخشى من العزل فرأى استدعاء " الفرنج" أى النورمان لحمايته "

وفتح لهم باب البلد ، فدخلوا وقتلوه وملكوا الجزيرة ، ومن الملاحظ أن هذه الحادثة التى ذكرها سبط بن الجوزى لم نجد لها أى دليل من الصحة فى بقية المصادر المعاصرة ، وكذلك لم نسمع عن والى يحمل اسم ابن البعباع ، مما يجعلنا نستبعد ذلك السبب وتلك الرواية التى رواها سبط بن الجوزى .

واتجه ابن الثمنه إلى جنوب إيطاليا حيث كان يقيم روجر النورمانى، واستدعاه لأمتلاك جزيرة صقلية ويشير المؤرخ ابن الأثير إلى أن روجر خشى من كثرة الجند المسلمين التى بها ، فهمس ابن الثمنة لروجر بأن مسلمى صقلية " مختلفون " واكثرهم يسمع قولى ولايخالفون أمرى " فاطمأن روجر إلى قول ابن الثمنة وسار معه بجيوشه متجها صوب صقلية. والواقع أن روجر نفسه كان متطلعاً لغزو صقلية وفى غير حاجة لأن يسهل عليه ابن الثمنة غزو صقلية ، فقد كان وفق قول أحد الباحثين الغربيين Curits فى كتابه Roger of sicily تواقا لأن تكون صقلية ميداناً للعمل والشهرة الزائعة . كما أن البابوية شجعت روجر على الاستيلاء على صقلية ، واعتبرت الحرب فى هذا الميدان حربا مقدسة .

ولم يلبث أن اتجه روجر وابن الثمنه صوب صقلية " فلم يلقوا من يدافعهم فاستولوا على مامروا به فى طريقهم " ثم قصدا قصريانه التى حصرها روجر وأنزل الهزيمة بابن الحواس ، فسار جماعة من أهل صقلية إلى المعز بن باديس مستنجدين به فاستجاب لهم المعز وأرسل أسطولا حطمتة أمواج البحر أثناء ذهابه إلى صقلية ، مما أتاح الفرصة للنورمان للاستيلاء

على مدن صقلية " على مهل وتؤده لايمنعهم أحد " . وفى ذلك الوقت كان المعز بن باديس قد توفى وتولى ابنه تميم حكم افريقية الذى بعث أسطولا إلى جزيرة صقلية لمحاربة النورمان (عام ٤٦١هـ/١٠٦٨م) غير أن الحقد والتنافس بين ابن الحواس وجيش افريقية ، أدى إلى رجوع أسطول افريقية وبصحبته عدد كبير من أعيان صقلية ، فى حين لم يبق للفرنج ممانع فاستولوا على الجزيرة ، مدينة تلو مدينة ، ولم يبق خارجاً عن أيديهم سوى مدينة قصريانه ومدينة جرجنت ، فحصرها النورمان ، وضيقوا على المسلمين حتى اكلوا الميتة ، وعدموا مايأكلون ولم يلبث أهل جرجنت أن سلموا مدينتهم للنورمان عام ٤٨١هـ / ١٠٨٨م ، بينما استسلمت قصريانه عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م ، وبذلك ملك النورمان " جميع الجزيرة ، وانتهى حكم الأمراء الكلبيين الذين حكموا صقلية نوابا عن الخلفاء الفاطميين ومن ثم صارت صقلية إمارة أو كونتيه نورمانية يحكمها روجر باسم أخيه روبرت جويسكارد.

وإذا كانت صقلية قد سقطت فى يد النورمان عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م، فعلى من تقع مسئولية سقوطها ؟ أعلى الفاطميين أصحاب السيادة الاسمية الشرعية عليها ؟ أم على حكام صقلية أنفسهم ؟ أم على بنى باديس اصحاب افريقية الذين استنجد بهم أهل صقلية ؟

لابن خلدون رأى ذو أهمية فى هذا الموضوع إذ يقول : " حتى إذا أدرك الدولة العبيدية - أى الفاطمية - والأموية - بالأندلس - الفشل والوهن

وطرقها الاعتلال ، مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش – كريت – ومالطه وغيرها وملكوها " . ومعنى كلام ابن خلدون أنه يحمل مسئولية إمتلاك النورمان لصقلية على تدهور قوة الفاطميين – العبيدين – والواقع أننا لم نصادف أدنى أشارة إلى أن الفاطميين حاولوا نجدة صقلية أثناء تعرضها للغزو النورمانى الذى استمر ثلاثين عاما (٤٥٤-٤٨٤هـ/ – ١٠٦١-١٠٩١م) ، وإذا كانت صقلية " ملكا لسلطان مصر تغادرها كل سنة سفينة تحمل المال إلى مصر ، على قول الرحالة المعاصر ناصر خسرو ، فلماذا تقاعس هذا السلطان عن الدفاع عنها ، لذلك يعتبر الفاطميون مسئولين مسئولية كبيرة عن سقوط صقلية فى يد النورمان .

ومن ناحية أخرى فإن حكام صقلية وهم الذين مزقهم الحقد والتنافس كانوا سبب استثارة طمع النورمان فى جزيرتهم ، ألم يكن ابن الثمنة هو الذى ذهب بنفسه إلىروجر النورمانى ليدعوه لإمتلاك صقلية !! كما أن الكره الدفين بين كل من العرب والبربر بصقلية ، أدى إلى رفض حكام صقلية لمساعدات تميم بن باديس ولذلك يتحمل حكام صقلية جانباً كبيراً من مسئولية ضياع صقلية .

أما من ناحية آل باديس ، فالتاريخ يشهد لهم بأنهم لم يتقاعسوا عن مديد المساعدة لصقلية أثناء غزو النورمان لها ، لولا أن أهل صقلية أنفسهم هم الذين أساءوا معاملتهم ، مما دفع أسطول تميم بن المعز بن باديس إلى أن يعود أدراجه إلى المهدية .

ملامح سياسة النورمان إزاء مسلمى صقلية :

كان على حكام صقلية الجدد من النورمان ، وضع سياسة حكيمة فى حكم تلك الجزيرة التى كانت تموج بمدد زاخر من طوائف السكان ، إذ كان بها فضلا عن المسلمين أعداد كبيرة من المسيحيين واليهود . لذلك ماكاد النورمان يحكمون قبضتهم على كل أنحاء الجزيرة حتى اختطوا لأنفسهم سياستهم لحكم تلك الجزيرة ، وضع أساسها الكونت روجر الأول (١٠٦١-١١٠١م) أول حكام صقلية من النورمان ، واستمرت هذه السياسة قائمة من بعده طيلة العهد النورمانى بصقلية ، وحتى زوال الحكم النورمانى عنها أثر إنتقال عرش صقلية إلى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، مع ملاحظة تأثر تلك السياسة بعاملين ، إحداهما الأحداث المعاصرة ، والثانى شخصية من تعاقب على حكم صقلية من ملوك النورمان . غير أن الشئ الثابت أن هذه السياسة دارت حول فكرة واحدة وهى محاولة الاحتفاظ بالعنصر العربى ، وتشجيع بقاء المسلمين بصقلية ، بعد أن أدرك النورمان أن المسلمين يمثلون العنصر البناء المنتج من عناصر السكان بصقلية .

ولكن إلى أى حد تمتع مسلمو صقلية بحريتهم الدينية فى ظل الحكم النورمانى المسيحى ؟ .

يعتبر كثير من المؤرخين أن استيلاء النورمان على صقلية عام ١٠٦١-١٠٩١م هو مرحلة من مراحل الحروب الصليبية التى إمتدت إلى الشرق بعد ذلك بستة أعوام (عام ١٠٩٧م) ، ويبدو هذا الرأى راجحاً إلى

حد كبير ، إذا تذكرنا أن البابوية هى التى باركت استيلاء النورمان على صقلية ، ورأت فى الحرب فى ذلك الميدان أى ضد المسلمين حرباً مقدسة ، ولكن علينا أن نلاحظ دائماً أن النورمان لم يتشربوا روح العداء والكراهية ضد المسلمين ، ولم يحاولوا طرد مسلمى صقلية أو ذبحهم بعد استيلائهم على الجزيرة مثلما فعل قادة الحملة الصليبية الأولى عقب استيلائهم على بيت المقدس عام ١٠٩٩م.

والواقع أن التاريخ يشهد لنورمان صقلية أنهم قدروا المسلمين وحضارتهم وأحسنوا معاملتهم ، حتى أن الكونت روجر الأول ترك لأهل صقلية من المسلمين حرية العقيدة . ولاشك فى أن سياسة روجر الأول هذه تلفت النظر فى عصر شهد ظهور فكرة الحروب الصليبية وانفجار روح العداء والتعصب ضد المسلمين مما كان محتملا أن يمتد أثره إلى صقلية ، غير أنه توجد عدة عوامل تحكمت فى سياسة روجر الأول مع مسلمى صقلية، أولها : أن روجر الأول نفسه كان أقل تعصبا من غيره لفكرة الحروب الصليبية الأمر الذى جعله لايتحمس كثيراً للنعرة الصليبية والإفراط فى كراهية المسلمين . وثانيا . لقد بهر روجر الأول بحضارة المسلمين فى صقلية فعز عليه ضياع تلك الحضارة بالقضاء على العنصر العربى الإسلامى الذى هو أساس تلك الحضارة ، وثالثا : أراد روجر الأول أن يتخذ من صقلية نقطة انطلاق إلى شواطئ افريقية الشمالية الخاضعة لحكم المسلمين ، وذلك من أجل تحقيق هدف إقتصادى تجارى ، فكان عليه أن يتبع سياسة المسالمة

والمحبة إزاء مسلمي صقلية حتى يكسب صداقة إخوانهم فى شمال افريقية ، تحقيقاً لأهدافه الاقتصادية السلمية .

كل هذه العوامل اجتمعت لتجعل من حكم روجر الأول لجزيرة صقلية حكما عادلا ، قرت به أعين مسلمى الجزيرة بعد أن أحسوا أنهم آمنون على ديانتهم وعقيدتهم ، فاستمرت المساجد عامرة فى شتى أنحاء صقلية ، وكان من حق أى مسلم إقامة شعائره الدينية فى أى مكان من الجزيرة دون أن تحدد أماكن لاقامتهم أو سكنهم أو إقامة شعائرهم الدينية،

وعلى الجملة فإن عصر روجر الأول كان هو عصر الحرية الدينية .

وكان أن استمرت هذه السياسة فى عهد ابنه وخليفته روجر الثانى (١١٠١-١١٢٩م) الذى كان اكثر تعاطفا مع المسلمين ، ويرى معظم المؤرخين أن روجر الثانى " اكرم المسلمين ومنع التعدى عليهم وقربهم إليه".

وجدير بالذكر أن روجر الثانى هذا اتهمه معاصروه باعتناق الإسلام، وذلك لمحبته الزائدة للمسلمين ورعايته لهم ، حتى بلغ حبه للمسلمين إلى درجة أنه ضرب عملته وعلى أحد وجهها شارة الإسلام وعلى الوجه الآخر شارة المسيحية .

كما احترم العنصر العربى بصقلية احتراما زائداً ، ولدينا أدلة تاريخية كثيرة تؤكد هذا الاتجاه ، من ذلك مثلا ماذكره المؤرخ ابن الأثير (ت٦٣٠هـ) عن تكريم روجر الثانى لكثير من العلماء العرب المسلمين ،

وعلى وجه الخصوص ذلك العالم المغربى ، الذى كان يرجع - روجر الثانى - إلى قوله ويقدمه على من عنده من الرهبان والقسيسين ، وذلك من فرط ثقة روجر الثانى فى علمه ودرايته . كذلك كان روجر الثانى يقدر الأدب العربى تقديراً كبيراً ، ويفهم العربية والشعر العربى فهماً جيداً ، كما إرتاح لمديح الشعراء وأجزل لهم العطاء ، مما دفع كثيراً من شعراء المشرق والمغرب إلى الرحيل إلى بلاطه بصقلية ليمدحوه ويفوزون بعطائه، مثلما فعل الشاعر ابن قلاقس ، الذى لم يكتف بالشعر وإنما صنف لروجر الثانى تاريخاً كبيراً .

ولم يقتصر إهتمام روجر الثانى بالعرب المسلمين عند هذا الحد ، وإنما تعداه إلى استخدامهم فى بلاطه . ومن الامثلة الواضحة الدالة على ذلك ، إستدعاء روجر الثانى الشريف الادريسى وهو العالم الجغرافى المغربى الذى إتخذه روجر الثانى وزيراً له وكلفه بإعداد مؤلفا بالعربية عن جغرافية العالم . واضعا تحت تصرفه إمكانيات كبيرة لإنجاز هذا العمل العلمى الكبير، وبالفعل إستطاع الادريسى أن يؤلف كتاب ، نزهة المشتاق فى إختراق الآفاق، كما وضع خريطه للعالم المعروف له ، ولم يكتف روجر الثانى بكل هذا ، وإنما كانت مراسيمه تكتب بالعربية إلى جانب اليونانية واللاتينية ، كما كانت العملة تضرب عليها كتابات عربية مشتملة على رمز المسيح ورمز الإسلام ، مثلما كان الحال أيام والده . كذلك إستخدم روجر الثانى علماء مسلمين فى إدارة بعض الدواوين خاصة ديوان الرسائل والإنشاء ومن بين العلماء الذين عملوا بهذا الديوان محمد بن الحسن بن الطوى.

وبلغ من إفتتان روجر الثانى بالنظم العربية الإسلامية فى تنظيم الدولة أنه " سلك طريقة المسلمين فى الجنائب والحجاب وغير ذلك " . كما أنشأ دواوين على نفس النمط الإسلامى مثل ديوان المظالم الذى ينظر صاحبه فى أمر الشكاوى وديوان التحقيق المعمور وهو الديوان الذى يعتنى بشئون الأراضى ويقوم بتسجيل كافة بياناتها ، وكذلك ديوان الطراز ، الذى يهتم بأمر ملابس الحكام وتطريزها كما أتخذ النورمان بعض العادات الاجتماعية الإسلامية مثل إتخاذ المظلة .

والحقيقة أن تأثر النورمان بالنظم الإسلامية جعل مملكة النورمان بصقلية تبدو وكأنها جزءا غير عادى بالنسبة للغرب الأوربى فى العصور الوسطى مما دفع كثيرا من الباحثين إلى القول بأن طابع حكومة النورمان غلب عليها التقاليد البيروقراطية الشرقية .

على أنه ثمة حقيقة يجب الألتفات إليها وهى أن عهد روجر الثانى لم يكن كله مليئا بالعطف والتسامح تجاه مسلمى صقلية ، ذلك أن سياسة روجر الثانى الخارجية خاصة سياسته التوسعية على حساب الشاطئ الشمالى لافريقية الخاضع للسيادة الإسلامية ، جرت ورائها أثارا سيئة على مسلمى صقلية ، فالمعروف أن روجر الثانى منذ عام ٥١٧هـ(١١٢٣م) حاول مد نفوذه إلى جزر البحر المتوسط والحصول على مراكز هامة على الشاطئ الشمالى لأفريقية من أجل تدعيم سياسته الاقتصادية ، ونتج عن هذا دخول روجر الثانى فى حروب ومناوشات عديدة مع مسلمى أفريقية ، كان أهمها

ماحدث عام ٥٤٨هـ (١١٥٣م) عندما أرسل روجر الثانى إسطولا كبيراً إلى جزيرة بونه تحت قيادة القائد فيليب المهدوى المعروف بالشدة والقسوة ، وبعد أن أتم فيليب غزو الجزيرة أخذته الرأفة بعدد كبير من العلماء والصالحين من أهل جزيرة بونة ، فسمح لهم بمغادرة الجزيرة بأموالهم وأهليهم إلى الأماكن المجاورة.

غير أن روجر الثانى غضب كثيرا من تسامح فيليب المهدوى وقبض عليه وأعدمه حرقا ، وبدأ قلبه يتغير على رعاياه من المسلمين ، وقد أدرك هذه الحقيقة المؤرخ المدقق إبن الأثير إذ علق على تلك الحادثة بقوله : " وهذا أول وهن دخل على المسلمين بصقلية " ونستطيع أن نعلل سبب موقف روجر الثانى المتغير إلى الشدة إلى خشيته من تغلل سطوة المسلمين ونفوذهم على رجاله داخل بلاطه ، مما يؤدى إلى ضعف الحكم النورمانى بصقلية وعودتها إلى الحكم اسلامى مرة أخرى .

وإذا كان روجر الثانى قد توفى بعد هذه الحادثة بمده قصيره (فى العشر الأول من ذى الحجة عام ٥٤٨هـ /١١٥٣م) مما يجعلنا نعجز عن معرفة سياسته التالية بعد تلك الحادثة ، إلا أن ماوصفت به المصادر العربية إبنه وخليفته من بعده وليم الأول (١١٥٦-١١٦٦م) من أنه كان (فاسد التدبير سيئ التصوير) ، يشير بوضوح إلى أن سياسة التسامح والعطف على مسلمى صقلية بدأت تتغير ، ولكن ليس معنى هذا أن إعتماد النورمان على المسلمين قد قل أو إنتهى ، فكل الدلائل تشير إلى إستخدام وليم الأول ومن

بعده وليم الثانى للمسلمين ظل مستمراً ، وذلك نتيجة طبيعية لتفوق العرب الحضارى وعدم مقدرة النورمان على الاستغناء عنهم فى مختلف شئون الجزيرة ، ولكن يبدو أن كل الذى حدث هو أن مسلمى صقلية صادفوا منذ حادثة عام ٤٥٨هـ/١١٣م ، تضييقا شديدا على حريتهم الدينية ، فصاروا تحت رقابة دائمة ، وذلك حتى يأمنوا جانبهم ، وتتضح هذه الحقيقة أكثر فى عهد وليم الثانى (١١٦٦-١١٧٩م) الذى إعتمد كثيرا على المسلمين ، فهو كما ذكر إبن جبير (ساكن اليهم فى أحواله والمهم من أشغاله ، حتى أن الناظر فى مطبخه رجل من المسلمين ، وله جملة من العبيد السود المسلمين ، وعليهم قائد منهم ، ووزراءه وحجابه الفتيان ، وله منهم جملة كبيرة هم أهل دولته والمرتسمون بخاصته ، وعليهم يلوح رونق مملكته ، لأنهم متسمون فى الملابس الفاخرة والمراكب الفارهة ، وما منهم إلا من له الحاشية والأتباع) .

غير أن استخدام وليم الثانى للمسلمين لايعنى أنه ترك لهم الحرية مطلقة فالحقيقة أنه وضع عليهم قيودا كثيرة ، ويوضح لنا هذه الحقيقة إبن جبير وهو أحد الرحالة المغاربة المسلمين ، إذ شاءت الأقدار أن ترمى أمواج البحر ورياحه بالسفينة التى كان يقلها عائداً من رحلة الحج إلى بر جزيرة صقلية ، ليقضى بها المدة من صباح الاثنين ٤ رمضان عام ٥٨٠هـ(١١٨٤م) إلى صباح الاثنين ٢١ذى الحجة من نفس العام ، وقد شاهد ابن جبير أثناء تلك المدة مختلف ألوان الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى كانت تموج بها جزيرة صقلية ودون مشاهداته فى تذكرة عن أخبار الأسفار ، ومن حسن الحظ أن تلك المدة التى قضاها إبن جبير بصقلية كانت معاصرة لحكم

الملك وليم الثانى ، مما جعل كتابات إبن جبير تعتبر مصدراً أساسيا عند التأريخ لعصر وليم الثانى .

وقد لفت نظر إبن جبير أحوال مسلمى صقلية خاصة التضييق على حريتهم الدينية ،من ذلك مثلا أن مسلمى صقلية لم يكن مسموحا لهم – عصر وليم الثانى – بإقامة شعائر صلاة الجمعة ، بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، وذلك على الرغم من وجود المساجد بكثير من مدن صقلية مثل بالرمو ، وثرمه واطرابنش ، كما أن بعض المساجد لم يكن مسموحاً فيها بالتأذين للصلاة بصوت مسموع لدرجة أن إبن جبير عندما وصل إلى مدينة ثرمه وسمع المؤذن يؤذن فيها للصلاة فرح كثيرا لسماع الآذان " الذى طال عهده بسماعه ".

كذلك يتضح من الحديث الذى أجراه إبن جبير مع القائد أبو القاسم إبن حمود المعروف بابن حجر زعيم مسلمى صقلية ، وما أظهره أبو القاسم من ضيق شديد بالحياة فى صقلية وتصريحه بقوله :-

" كنت أود لو أباع أنا وأهل بيتى ، فلعل البيع يخلصنا مما نحن فيه، ويؤدى بنا إلى الحصول فى بلاد المسلمين ، إنما يشير إلى شدة الضيق الذى كان يعانيه مسلموصقلية فى عصر وليم الثانى .

ويبدو أن وليم الثانى لم يضع قيودا على حرية المسلمين الدينية فحسب ، وإنما تعدى هذا إلى الضغط عليهم من أجل ترك الدين الإسلامى وإعتناق المسيحية . ويظهر هذا بوضوح من خشية أحد مسلمى صقلية من

تحول ابنته البكر الصغيرة عن الدين الإسلامي ، مما دفعه إلى عرض تزويجها من أحد الحجاج المصاحبين لابن جبير او ان يأخذوها معهم ويزوجها لمن يريدوا فى بلاد الأندلس الإسلامية حتى يضمن بعدها عن صقلية وعدم تحولها عن الدين الإسلامي.

ولكن على الرغم من كل هذا الضغط والتضييق ، ظل كافة المسلمين والمسلمات الخدم والعبيد والجوارى ، العاملين فى قصر وليم الثانى كاتمين إيمانهم يتعبدون فى صمت ، فحين يحين " وقت الصلاة يخرجون أفراداً من مجلسه – أى من مجلس وليم الثانى – فيقضون صلاتهم وربما يكونون بموضع تلحقه عين ملكهم ، فيسترهم الله عز وجل"..

ويقال إن جوارى وليم الثانى بلغن درجة كبيرة من التدين حتى أنه اذا دخل فى قصر وليم الثانى أى جارية نصرانية فلا تلبث الجوارى المسلمات أن يغرسن فيها الدين الإسلامى وتعشق الدين الإسلامى ، وجميعهن " على تكتم من ملكهم فى ذلك كله ، ولهن فى فعل الخير أمور عجيبة ".

والحقيقة إن بلاط وليم الثانى إمتلأ بالمسلمين والمسلمات المؤمنين بالدين الإسلامى والعقيدة ، إيماناً قويا ، وقد حدث زلزال شديد أرجف بقصره كله ، وكان وليم الثانى أثناء ذلك الزلزال يتطلع فى قصره ، فلا يسمع الا ذاكرا لله ولرسوله من نسائه وفتياته ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم : ليذكر كل أحد منكم معبوده ، ومن يدين به تسكيناً لهم .

آل كابيه في فرنسا

يرى كثير من الباحثين أن تاريخ فرنسا كدولة يبدأ بعد معاهدة فردان عام ٨٤٣م ، وخلال القرن العاشر الميلادى امتلأ تاريخ فرنسا بالحروب الأهلية من أجل الوصول إلى حكم فرنسا ويتبلور هذا الصراع بين أسرة أدو كونت باريس والتى عرفت فى التاريخ بالأسرة الروبرتيه ، أما الأسرة الثانية فهى الأسرة الكارولنجية التى انتهى حكمها فى أواخر القرن العاشر الميلادى بوفاة آخر وريث كارولنجى وهو شارل الخامس عام ٩٨٧م فانتخب الأمراء هيو كابيه حاكماً على فرنسا ليبدأ بذلك عصر أسرة جديدة هى أسرة كابيه.

ويعتبر وصول هيو كابيه إلى حكم فرنسا ثم نجاحه فى جعل الحكم فى أسرته انتصاراً للاقطاع على الملكية الكارولنجية، فهيو كابيه ماهو إلا أميراً إقطاعياً ، وعندما صار ملكا على فرنسا أصبح ذلك انتصاراً للإقطاع حيث أصبح ممثلاً لكبار الاقطاعيين .

ومن الجدير بالذكر أن من أهم ماساعد على نجاح أسرة كابيه فى حكم فرنسا هو تفهم آل كابيه لرغبات الاقطاعيين وآمالهم بحكم مالهم من أصول اقطاعيه بصفتهم ساده اقطاعيين وهو الأمر الذى اختلف بالنسبه لملوك الكارولنجيين الذين لم يتفهموا مطالب الساده الاقطاعيين ورغباتهم، فكان ذلك عاملاً مساعداً فى إ نهيار البيت الكارولنجى بفرنسا.

وقد استطاع هيو تثبيت دعائم حكمه فى فرنسا وتم تتويج ابنه روبرت فى حياته ملكا على فرنسا ، مما سهل عملية انتقال الحكم إليه بعد وفاة والده ،

واستمر روبرت الثانى (٩٦٦- ١٠٣١م) فى الحكم حتى وفاته فخلفه ابنه هنرى الأول (١٠٣١-١٠٦٠م) ومن بعده فيليب الأول(١٠٦٠-١١٠٨م) الذى أورث الحكم من بعده لولده لويس السادس (١١٠٨-١١٣٧م) .

وثمة عدة ملاحظات ساعدت على استقرار الحكم الملكى فى فرنسا بصورة أكبر مما كانت فى سائر دول غرب أوربا نوجزها فيما يلى :-

أولاً : اعتماد الملكية الفرنسية على ماضيها القديم منذ أيام كلوفيس مؤسس الدولة الميروفنجيه بغاليا، ومن بعده شارلمان صاحب الماضى التليد .

ثانياً : ذلك التحالف الوطيد الذى ربط الملكية الفرنسية بالكنيسة الفرنسيه، وقد ازدادت هذه العلاقة الطيبة على مر العصور .ويبدو أن مصلحة ملوك فرنسا كانت تدفعهم إلى التمسك بهذه العلاقة ، وفى المقابل نظر رجال الكنيسة الفرنسية إلى الملكية على أنها الحامية لها.

ثالثاً : زاد من أهمية الملكية الفرنسية موقع أملاك التاج فى وسط فرنسا ، حيث تشرف على أهم طرق المواصلات .

رابعاً : مثلت الملكية الفرنسية بالنسبة للكثيرين من أبناء الطبقة المتوسطة خاصة تلك الطبقة الناشئه حديثا فى المدن ، مثلت لهم حماية من ظلم السادة الاقطاعيين ، وساعد هذا بطبيعة الحال إلى تمتع الملكية الفرنسية باحترام شديد بين أبناء هذه الطبقة .

أما أهم أحداث فرنسا زمن الملوك الأربعه الذين سبق الإشارة اليهم فتتمثل فى محاولاتهم الناجحة فى توطيد دعائم الحكم فى الأسرة الكابيه ، ثم فيما حدث من قيام الحملة الصليبية فى عهد فيليب الأول ، واشتراك عدد كبير من الأمراء الاقطاعيين الفرنسيين فيها ، مما ساعد على هدوء الأحوال بفرنسا بعض الشىء . كذلك ماحدث من تولى وليم الفاتح النورمندى حكم انجلترا عام ١٠٦٦م، وهو أمير اقطاعى بفرنسا يتبع التاج الفرنسى ، مما جعل الملك الفرنسى يستريح منه بعض الشىء وأدى إلى أن يبذل ملوك فرنسا جهدهم للإستيلاء على أملاك النورمان بفرنسا وقطع صلتهم بها ، وهذا ماتحقق بعد خوض غمار حروب متصله انتهت بإقتلاع شأفة حكم ملوك انجلترا فى الأراضى الفرنسية .

أما أهم أحداث عصر لويس السادس (١١٠٨-١١٣٧م) فتتلخص فى محاولاته فى توطيد دعائم الملكية الفرنسية ، ثم القضاء على الأمراء المتمردين ، والدفاع عن أملاك الكنيسة فى فرنسا ، وبالجمله فقد نجح لويس السادس فى سياسته الداخلية . أما فى الميدان الخارجى فلم يحالفه التوفيق والنجاح بقدر نجاحه فى السياسة الداخلية ، حيث جرت سياسته الخاطئه عليه عداء إنجلترا خاصة بعد وقوفه إلى جانب المدعى فى حكم نورمنديا كذلك وصلت علاقته إلى درجه متدنيه بالامبراطوار الألمانى هنرى الخامس بعد مساندة لويس للبابوية فى كفاحها ضد هنرى .

وإذا كان لويس السادس لم يوفق فى سياسته الخارجية فإنه يشفع له نجاحه فى سياسته الداخلية التى عادت بالنفع والفائده على فرنسا .

أما ابنه لويس السابع (١١٣٧ -١١٨٠م) فلم يكن موفقاً فى حكمه مثلما كان الحال مع والده ، ولعل عدم توفيقه فى الحملة الصليبية الثانية التى قادها إلى الشرق هو الذى جر عليه كثير من المتاعب ، كما أن خسارته لدوقيه اكُوتين بعد طلاقه للأميره الينور وريثة حكم اكُوتين ، ثم زواج الأخيرة بعد ذلك من خصمه هنرى الثانى ملك انجلترا ، مما أدى إلى خروج اكُوتين من يده إلى يد هنرى الثانى .

غير أن لويس السابع قد خطى عدة خطوات واسعه ساعدت على استمراره فى الحكم بصوره قويه ، كان أهمها وقوفه إلى جانب البابا الاسكندر الثالث أثناء صراعه مع الامبراطور فردريك بربروسا ، مما جعل البابوية تؤيده تأييداً قوياً ، وساعد هذا بلاشك على تثبيت دعائم حكمه . هذا بالإضافة إلى اعتماده على أحد الرجال المخلصين ألاوهو سوجيه الذى كان زميلاً للويس أثناء الدراسة فى مدرسة دير القديس دينيس Saint Denis ، وقد أظهر سوجيه براعه فائقة أهلته لأن يتولى رئاسة هذا الدير، ثم أصبح وزيراً ومستشاراً لكلاً من لويس السادس ومن بعده لويس السابع وأخلص لهما النصيحة ، وكان خير عون لهما . كذلك مما ساعد على تقوية الملكية الفرنسية فى تلك الفترة إرتماء صغار الاقطاعيين فى أحضان لويس السابع طالبين حمايتهم من بطش كبار الاقطاعيين ، بالإضافة إلى ذلك فقد حلت المحاكم الملكية بالتدريج محل المحاكم الاقطاعية وذلك لنزاهة أحكامها.

فيليب الثاني (أوغسطس) ١١٨٠-١٢٢٣م :

تمتع فيليب الثانى بشخصية قويه وذكاء سياسى كبير كما اتصف بالشجاعه والحزم ، ويبدو أن فرنسا فى هذه الفترة ، كانت فى حاجه ماسه إلى شخصية مثل شخصية فيليب اوغسطس .

وقد ساعد فيليب اوغسطس طول مدة حكمه التى بلغت ثلاثه واربعين عاماً على تحقيق أهدافه وترسيخ أقدام الملكية الفرنسية .

وفى الميدان الداخلى استطاع فيليب اوغسطس تأكيد حقوقه تجاه الأمراء الاقطاعيين ، كما حصل على تأييد الكنيسة المسيحية دون أن يتنازل لرجال الدين عن حقوقه السياسية ، وإن كان قد تعرض فى بعض الأحيان إلى حرمان الكنيسة له. كذلك ناصر فيليب اوغسطس المدن وعمل على تحقيق مطالبها فى منحها الحريات اللازمه ، فدخلت كثير من تلك المدن تحت رعايته وحمايته . كما اعتمد فى تحقيق سياسته الاداريه على جهاز من الموظفين يعينهم الملك مباشرة ويدفع لهم رواتب شهريه ، وحل هذا النظام محل النظام القديم الذى اعتمد على الموظفين الذين كانوا يرثون وظائفهم عن آبائهم وأجدادهم.

أما فى الميدان الخارجى فقد نجح فى احراز النصر على اعداءه فى انجلترا حيث استطاع استقطاع بعض أملاكهم فى فرنسا مثل نورمنديا وبريتانى وغيرهما ، وضم هذه الأملاك إلى التاج الفرنسى . وقد دفع هذا الوضع حنا ملك انجلترا إلى تكوين حلف ضد فيليب من أوتو الرابع

امبراطور ألمانيا وانضم إلى هذا الحلف حاكم الفلاندرز . ولم يأبه فيليب اوغسطس بهذا الحلف وجمع قواته ودخل معهم فى معركه بوفين Bouvines عام ١٢١٤م انتهت بهزيمة ساحقة لحنا وحلفائه ، وترتب على هذه المعركه نتائج خطيره على تاريخ أوربا كلها.

كذلك حقق فيليب رغبة البابوية فى الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق ، حيث اشترك فى الحملة الصليبية الثالثه ،ولكن لم تطل إقامته فى الشرق بسبب تخوفه من ضياع حقوق زوجته فى اقليم الفلاندرز بعد وفاة كونت الفلاندرز .

وقد خلف فيليب اوغسطس ابنه لويس الثامن ١٢٢٣-١٢٢٦م الذى لم تطل مدة حكمه لاكثر من ثلاث سنوات لم تظهر فيها مواهبه الخاصة ، ففى بداية حكمه حافظ على ذلك الجهاز الحكومى الذى ورثه عن والده وعمل على تقويته ، كما أخذ فى تنقية هذا الجهاز بإستبعاد

الموظفين الذين يثبت فسادهم.

أما العمل الذى اتصف به لويس الثامن فهو اشتراكه فى الحملة التى قادها ضد الخارجين عن الكنيسة فى جنوب فرنسا وهم الالبجنسيين تلك الحركة التى قادها سيمون دى مونتوفرات الذى لم يستطع الصمود فى وجه لويس الثامن فدخل فى طاعته .

وبعد وفاة لويس الثامن خلفه فى عرش فرنسا ابنه لويس التاسع الذى أنجبه من الأميرة بلانش القشتاليه Blanche of castile - فهى ابنة الفونسو

التاسع ملك فشتاله الذى تولى حكم فرنسا صغير السن حيث كان فى الثانية عشر من عمره (١٢٢٦ - ١٢٧٠م) فتولت أمه بلانش الوصاية عليه . وقد نجحت بلانش في تربية ولدها تربية صحيحة وإن كانت تربية دينية أثرت بعد ذلك على شخصية ولدها الذى مال إلى حياة الزهد. واستطاعت بمساعدة البابوية التى ناصرتها الحفاظ على عرش ابنها من المؤامرات المتكرره التى دبرها أمراء فرنسا ضد لويس التاسع وامه بلانش .

وبعد انتهاء فتره الوصاية على لويس التاسع عام ١٢٣٥م تولى حكم فرنسا بمفرده واستطاع تحقيق نجاحاً ملموساً فى سياسته الداخلية حيث قام بعدة أعمال اجتماعيه وأصدر مجموعة من القوانين التى تحرم قتل العبيد والأتباع بدون محاكمه ، وتحريم الثأر وأهتم بالقضاء وتنظيم جباية الضرائب وأعاد تنظيم العلاقة بين الأمراء والدوله.

أما أهم ماميز سياسته تجاه الكنيسة فقد تركزت على حماية لويس لها ولكن دون تفريط فى حقوقه السياسية ، حيث لم يسمح بتدخل الكنيسة فى الشئون الدنيويه . وقد ساعدت سياسة لويس الدينية على زيادة الهدوء والأمن بفرنسا ، مما أدى إلى تطورها فى كثير من المجالات الحضاريه ، ذلك التطور الذى وضح جلياً زمن لويس التاسع.

وبالنسبة لسياسة لويس التاسع الخارجية فقد استطاع عقد اتفاقية مع ملك انجلترا هنرى الثالث، هدأت بمقتضاها الصراعات بين البلدين ، أما أبرز عمل خارجى قام به لويس التاسع فكان اشتراكه فى الحملة الصليبية السابعه

على مصر، ولم يحرز نجاحاً فى هذه الحملة حيث وقع أسيراً فى يد المسلمين، ولم يطلق صراحة إلابعد دفع فديه ماليه كبيرة ، وبعدها آثر أن يقبع ببلاد الشام أربع سنوات عسى أن يحقق نصراً يمحو به عار الهزيمة السابقه. وفى أواخر أيام لويس فكر فى القيام بحملة صليبية اخرى يكون ميدانها هذه المرة تونس ، وهذا يؤكد أن لويس لم يتعظ بما حدث له فى الحملة الصليبية السابعه وماتعرض له من أسر ، وبالفعل اتجه إلى تونس عام ١٢٧٠م ولكن كان العمر قد ولى والسن تقدم ولم يعد قادراً على تحمل مصاعب الحروب ، فتوفى بعد أن وصلت حملته إلى شاطئ تونس ، وأعيد إلى فرنسا جثمانه ليكرمه أهالى فرنسا وخلعوا عليه لقب القديس ، ومن ثم عرف فىالتاريخ بالقديس لويس.

وتوالى على حكم فرنسا بعد لويس التاسع عدد من الملوك من سلاله آل كابيه ، حيث تولى فيليب الثالث (١٢٧٠-١٢٨٥م)، ثم فيليب الرابع (١٢٨٥-١٣١٤م)، ثم لويس العاشر (١٣١٤-١٣١٦م) ، ثم فيليب الخامس (١٣١٦-١٣٢٢م)، ثم شارل الرابع (١٣٢٢-١٣٢٨م) .وبعد وفاة شارل الرابع الذى توفى دون وريث من الذكور ، أختار الأمراء فيليب دى فالوا (١٣٢٨-١٣٥٠م) وبذلك انتقل عرش فرنسا إلى أسرة جديده، وينتهى بذلك حكم أسرة كابيه بها.

انجلترا والحكم النورماندى

ذكرنا سابقاً أن الشماليين Northmen أنقسموا أثناء زحفهم تجاه الجنوب إلى عدة أقسام ، فإتجه السويديون إلى سهول روسيا، بينما أخذ الدانيون والنرويجيون الذين عرفوا باسم الفيكنج طريقهم إلى غرب أوربا، وكان ذلك فى القرن الثامن الميلادى .

وبدأ الفيكنج (الدانيون والنرويجيون) يهاجمون غرب أوربا فاصطدموا بقوة الفرنجه ممثله فى دولة الميروفنجيين ، وكانت قوة الميروفنجين ثم الكارولنجيين من بعدهم ذات أثر كبير فى توقف غارات الفيكنج على أوربا خاصة بعد مقتل ملك الدانيين " جوترد " عام ٨١٠م ، فسكن الفيكنج دون القيام بأية اغارات على القاره الأوربية اللهم سوى بعض الاغارات المتفرقه للسلب والنهب .

أما انجلترا التى استقر بها فرع من الشماليين منذ القرن الخامس الميلادى وهو الانجلو سكسون، فقد هاجمها الفيكنج فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، واستمرت هذه الهجمات حتى استطاع الدانيون الاستيلاء على الطرف الشمالى الشرقى لانجلترا ، ثم غزوا معظم أراضى انجلترا بين عامى ٨٦٦و٨٧١م وانتهى الأمر بعقد اتفاقية بين الدانيين والفرد الكبير ملك وسكس (٨٧١-٩٠٠م) تنازل بمقتضاها للدانيين عن شطر كبير من انجلترا وهو المعروف باسم أرض الدانيين . ولم يلبث أحد أحفاد الفرد وهو ابلستان أن طرد الدانيين من انجلترا ، وبعد فتره تم توحيد انجلترا مرة اخرى تحت حكم

ملك انجليزى واحد هو أدجارالذى حكم انجلترا بين عامى ٩٥٩-٩٧٥م. وعلى الرغم من ذلك فلقد ظل الدانيون يهاجمون انجلترا وشنوا عليها الغارات، مما اضطر ملوك انجلترا إلى تأدية الأموال لهم إتقاء شر هجماتهم .

وتولى بعد إدجار الملك أثبرت Athebert عرش انجلترا الذى حاول محاربة الدانيين بطرق دبلوماسيه منها التحالف مع أمراء نورمنديا حيث تزوج من إما Emma أخت أمير نورمنديا . وبعد وفاة أثبرت

تولى من بعده ابنه كانوت Canute حكم انجلترا ، وبعد وفاته استطاع أدورد المعترف الابن الثانى لاثبرت الوصول إلى حكم انجلترا عام ١٠٤٢م بمساعدته والدته إما وخاله دوق نورمنديا. وتعتبر فتره حكم ادورد المعترف مرحلة تمهيديه للحكم النورمندى لانجلترا ، حيث كان ادورد متشبعاً بالعادات النورمنديه ، فجعل حراسه من النورمندين ، وانتشرت العادات والتقاليد النورماندیه فى البلاط الملكى مما أدى إلى ظهور معارضه شديدة لأدورد المعترف داخل انجلترا.

وبعد وفاة ادورد المعترف عام ١٠٦٦م أختار الأمراء أحد قادة المعارضه وهو هارولد ، مما أدى إلى تدخل وليم النورمندى (الفاتح) فى شئون انجلترا ، هذا التدخل الذى انتهى بإعتلائه عرش انجلترا.

وقد استند وليم فى هذا التدخل على أن ادورد ولاه عهده من بعده ، كما أن هارولد أقسم أن يكون تابعاً له عام ١٠٦٥م وألايتخذ قراراً هاماً بدون استشارته ، لذلك يبطل توليه حكم انجلترا مادامت حدثت بدون استشارة وليم.

ولم يلبث وليم الفاتح أن زحف على انجلترا واستطاع دخولها وإنزال الهزيمة بهارولد الذى قتل أثناء القتال ، ومن الجدير بالذكر فإن البابوية وقفت إلى جوار وليم الفاتح ، مما ساعد على تقويه موقفه فى انجلترا . وبدخول وليم الفاتح النورمندى انجلترا تبدأ مرحلة جديدة فى تاريخها.

وليم الفاتح النورمندى (١٠٦٦-١٠٨٧م):

يعتبر حكم وليم الفاتح لانجلترا بداية عهد جديد فى تاريخها، حيث ساعد على تطور الحضاره بها ، ونقل اليها ماكان سائداً فى فرنسا من تطور حضارى ، وأخرجها من عزلتها وزاد من ارتباطها بأوربا.

أما عن أهم الأعمال التى قام بها وليم الفاتح بإنجلترا يمكن إجمالها فيما يلى :

أولاً : مصادرة أراضى اعداءه من السكسون ، لصالح التاج ، تم توزيعها على من يثق بهم من النورمان .

ثانياً : إصدار أوامره للنبلاء بعدم حصر أملاكهم فى منطقه واحدة ، حيث سمح لهم بتملك اى قدر من الأراضى بشرط أن تكون الأراضى متباعده ، وذلك حتى لاتتركز قوتهم فى مكان واحد فتزداد سلطتهم ونفوذهم ، ويسهل بعد ذلك القضاء عليهم اذا حدث منهم عصيان او تمرد .

ثالثاً : اشترط على الأمراء أن يقسموا له يمين الولاء حتى يضمن تبعيتهم الخالصه له وعدم وقوفهم فى صف اى من الأمراء المعارضين له.

رابعاً : اعتمد وليم الفاتح علىمجموعة ضخمه من الاقطاعيين والموظفين الاداريين المخلصين له، كما أبقى على بعض التنظيمات الاداريه التى كانت موجوده بانجلترا مثل مجلس الحكماء Witman ، ولم يغير فيه سوى الاسم الذى أصبح باسم المجلس الكبير ، كما كان هناك مجلس الملك الخاص caria regis الذى ضم الوزراء ، ولم يغيره وليم سوى أنه ضم إليه وزير القضاء ، وهو منصب تم استحداثه.

وعلى الجمله فقد احتفظ وليم بكافة التنظيمات الاداريه الموجوده بانجلترا ، ولم يقم إلا ببعض التغيرات القليله.

خامساً : قيامه بعمل إحصاء عام فى انجلترا عام ١٠٨٦م قصد منه الوقوف على إحصاء دقيق لموارد السكان وأحوالهم المعيشيه والاجتماعيه.

سادساً : عمل وليم الفاتح على إصلاح أحوال الكنيسة ، وهذا الإصلاح هو امتداد لحركة الإصلاح الكبرى التى ظهرت فى دير كلونى بفرنسا ، وقد اعتمد وليم فى هذه الحركة الإصلاحية الكنسية على لانفرانك رئيس أساقفة كانتربورى الذى سار على نفس سياسة جريجورى السابع الإصلاحية من محاربة السيمونية وزواج رجال الدين . غير أن وليم الفاتح استطاع أن يسير هذه الحركة وفق أهوائه فاحتفظ لنفسه بحق تعيين رجال الدين فى انجلترا ، وأن يوافق مسبقاً على اية قرارات

تصدرها الكنيسة ، ولم يعتبر وليم الفاتح نفسه تابعاً للبابوية ، وهو أمر رفضه رجال الدين فى فرنسا وألمانيا .

سابعاً : احتفظ وليم لنفسه بالسلطات القضائيه والاداريه ، ولم يسمح للأمراء الاقطاعيين بالتدخل فى الشئون القضائيه ، وجعلها فى يده.

ومن العرض السابق يتضح لنا أن وليم الفاتح حكم انجلترا حكماً استبدادياً .

أما عن علاقته الخارجية ، فكانت تدور حول علاقته بفرنسا ، فلم يزل وليم دوق نورمنديا ، وهى جزء من أراضى فرنسا ، وبذلك يصبح وليم أميراً اقطاعيا تابعاً لملك فرسا . غير أن هذا الوضع تغير بعد أن أصبح وليم ملكاً على انجلترا ، فأخذ الصراع يدب بينه وبين فيليب الأول ملك فرنسا ، ودخل معه فى صراع عسكرى حيث أحرز وليم نصراً على منافسه ، وأحرق عدة مدن فرنسيه مثل مدينة مانت Mantes ، وعدة مدن أخرى واقعة على مصب نهر اللوار Loire ، وأثناء ذلك الصراع سقط وليم الفاتح من على ظهر جواده ، فأصيب اصابة خطيره مات على أثرها عام ١٠٨٧م.

وليم الثانى (١٠٨٧-١١٠٠م) :

اقتسم أبناء وليم الأول ممتلكات أبيهم ، ووصلوا إلى إتفاق بعد صراع، حيث أخذ روبرت - وهو الإبن الأكبر لوليم - نورمنديا ، بينما حصل وليم الثانى على حكم انجلترا حيث توج ملكا عليها ، وأقسم أن يحافظ

على ماوضعه والده من أسس ونظام لكنه لم يلبث أن انغمس فى الاستبداد بالحكم ومال إلى سفك الدماء ، لدرجه أن الأمراء لقبوه بوليم الأحمر نسبه لحبه لسفك الدماء.

كذلك ناصب وليم الثانى العداء رئيس أساقفه كانتربورى لانفرانك،

واستمر كذلك حتى وفاة الأخيرعام ١٠٨٩م وعين مكانه أنسلم Anselm الذىلم يلبث أن اختلف كذلك مع وليم الثانى ، حيث آمن أنسلم بفكرة السمو البابوى ، وأنه لا سلطه تعلو سلطه البابا ، ومن هذا المنطلق فقد رأى أنسلم أن تعيين ملك انجلترا له فى وظيفه رئيس اساقفه كانتربورى لايكفى ، ولابد له – اى لأنسلم – أن يذهب إلى روما ليقوم البابا بتقليده وظيفته . وفى هذا إقلال من شأن ملك انجلترا ، لذلك رفض وليم الثانى هذه الفكره وأنذر أنسلم أنه فى حالة ذهابه إلى روما لن يسمح له بالعودة إلى انجلترا مرة أخرى . غير أن انسلم لم يأبه بهذا التهديد وذهب إلى روما ومكث هناك حتىوفاة وليم الثانى ، ثم استدعاء هنرى الأول له.

أما وليم الثانى فظل يحكم انجلترا حكماً استبدادياً حتى تم اغتياله عام ١١٠٠م لينتقل العرش إلى أخيه هنرى الأول.

هنرى الأول ١١٠٠-١١٣٥م:

لم يرتكز حكم هنرى الأول – فى البداية – على أسس وطيده ، حيث لم يعهد له وليم الثانى بالحكم ، فى حين كان أخوه الأكبر روبرت دوق

نورمنديا هو صاحب الحق فى حكم انجلترا والذى كان غائباً لاشتراكه فى حملة صليبية ، كما لم يوافق أمراء انجلترا على توليه الحكم . لذلك أخذ فى التغرب اليهم بإعاده ماسبق وأن سلبه منهم أخيه وليم الثانى من حقوق ، كما أنه استغل فرصة غياب أخيه روبرت عن أوربا لاشراكه فى حملة صليبية على الشرق الإسلامى وأخذ فى توطيد نفوذه فى انجلترا . لكن بعد عودة روبرت من الشرق التف حوله مجموعة من الأمراء الناقمين على هنرى وأوعزوا إليه بضرورة المطالبه بحقه فى حكم انجلترا.

غير أن كل الظروف كانت فى جانب هنرى ، حيث نشبت ثوره ضد روبرت فى نورمنديا ، التى استغلها هنرى وأغار على نورمنديا ، وأنزل هزيمة ساحقة بجيش روبرت عام ١١٠٦م حيث وقع روبرت نفسه أسيراً فى يد هنرى الذى سقطت فى يده نورمنديا ، وضمها إلى حكمه . وبذلك أصبح هنرى حاكما على كل الممتلكات التى تركها وليم الأول فى انجلترا ونورمنديا.

أما عن علاقة هنرى الأول بالكنيسة ، فتميزت بحدوث صراع مرير بينهما حيث رفض أنسلم - الذى استدعاه هنرى من روما - التبعية له ، خاصة وأن انسلم كما سبقت الإشارة كان مؤمناً بمبدأ السمو البابوى .

و يبدو أن هنرى آثر فى بداية حكمه وأثناء صراعه مع أخيه روبرت ، عدم الدخول فى صراع مع الكنيسة خاصة وأنه كان فى حاجه إلى تأييد الكنيسة له أثناء صراعه مع روبرت ، لكن بعد استتباب الأمر له عقب هزيمة روبرت عام ١١٠٦ م كشف عن وجهة ودخل فى صراع مع أنسلم، ذلك الصراع

الذى انتهى بعقد اتفاقية بين الطرفين نصت على حق الكنيسة فى اختيار رجال الدين ، وللملك أو من ينوب عنه حق حضور هذا الاختيار . وبذلك عاد الهدوء إلى انجلترا فى ظل هنرى الأول ، وحاول هنرى القبض على زمام الأمور حيث أصبحت الحكومه اكثر مركزية وأشد سلطه، ووضع نظاماً مالياً دقيقاً ، وعمل على انشاء مجموعة من المحاكم المتجوله لتحقيق العدالة ، ولأن معظم الدعاوى تعرض أولاً على الملك ثم يرسلها إلى المجلس الملكى ، ولما كان من المتعذر على سكان الأطراف الوصول إلى العاصمة ومتابعة الملك فى حله وترحاله ، فقد حلت هذه المحاكم المتجوله هذه المشكلة .

أما المشكلة التي اجهت انجلترا فى أواخر أيام هنرى وبعد وفاته ، فكانت مشكله وراثة الحكم ، حيث لم يكن لهنرى ولد ذكر وإنما كانت لديه ابنه هى ماتيلدا الذى زوجها من قوبلاى أميرانجو ، وكان من المفروض أن تتولى ماتيلدا الحكم بعد وفاة والدها ويشاركها فى ذلك زوجها قوبلاى ، لكن أمراء انجلترا أنفوا الخضوع لحكم إمرأه ، فلم يتحمسوا لنصرتها عندما حضر ستيفن أمير بلوا وابن اديل Adele ابنة وليم الفاتح ، الذى حضر بجيوشه إلى انجلترا مطالباً بالعرش ، ونال تأييد الأمراء الذين سبق وأن أقسموا لهنرى الأول بمسانده ابنته ماتيلدا .

ستيفن ١١٣٥-١١٥٤م :

وما أن حصل ستيفن على تاج انجلترا حتى أحاطت به المشاكل من كل ناحية ، ويرى كثير من المؤرخين أن شخصية ستيفن نفسها كانت عاملاً

مساعداً فى إثارة هذه المشاكل ، حيث كان كثير التردد ، عمل على التقرب من الأمراء بمنحهم امتيازات كثيره على حساب حقوق التاج ، وزادت الفوضى بالبلاد مما دفع بعض الأمراء للمناداه بخلعه من عرش انجلترا واسناده إلى الأميرة ماتيلدا ، ونشبت من جراء هذا حرباًأهلية بين ستيفن وبين هنرى ابن ماتيلدا انتهت بعقد اتفاقية بين الطرفين عام ١١٥٣م بمقتضاها صار من حق هنرى بن ماتيلدا حكم انجلترا بعد ستيفن الذى لم يلبث أن توفى فى العام التالى (١١٥٤م) ليتولى حكم انجلترا هنرى الثانى - ابن ماتيلدا - وفق الاتفاقية السابقة .

ومن الجدير بالذكر أنه بتولى هنرى الثانى عرش انجلترا ينتهى بذلك حكم النورمان لانجلترا ، حيث انتقل العرش إلى أسرة البلانتاجنت Plantagenet ، وتعود هذه التسميه إلى أن والد هنرى وهو جوفرى الانجوى كان يلبس قبعه وعليها نبات البلانتاجنت (نبات الرتم) . المسمى بالفرنسية Plantagenet .

أسرة البلانتاجنت فى انجلترا وحرب المائة عام

تميز عهد هنرى الثانى بضرب الاقطاع فى انجلترا ، وتدمير الحصون الاقطاعية . وبدأ عهده بالاستقرار والأمن . غير أن هذه البداية الهادئة القوية مالبثت أن تحطمت على صخرة الكنيسة المسيحية .

ذلك أن صراعا شديداً نشب بين هنرى الثانى وتوماس بكت Thomas Becket رئيس أساقفه كانتربورى الذى يعود أصله إلى اسره نورمانديه متوسطة الحال ، ونال قسطاً من التعليم المدنى والدينى ، ثم تدرج فى المناصب الكنسية ، وارتبط بكت برباط الصداقة بهنرى الثانى الذى أختاره وزيرا ومستشاراً له عام ١١٥٥م . وقد شارك توماس بكت منذ إختياره وزيراً له مشاركه فعاله فى حكم انجلترا جنبا إلى جنب هنرى حيث كثيرا ماعهد إليه بقيادة الجيوش أو بإرساله سفيراً من قبل الملك إلى كثير من البلدان ، واستمر وضع توماس على هذا النحو حتى عام ١١٦٢م، وهو العام الذى تم فيه اختياره ليشغل وظيفة رئيس أساقفه كانتربورى . وقد نبذل حال توماس بكت بعد شغله رئاسة أساقفه كانتربورى حيث مال إلى حياة الزهد ، ثم أصبح من أكبر المناصرين لحقوق الكنيسة خاصة عدم محاكمة رجال الدين أمام محاكم مدنيه , وقد تزامن هذا الموقف مع دعوة هنرى إلى عقد اجتماع للأمراء ورجال الدين لإصدار قرار يتضمن خضوع رجال الدين للمحاكم المدنية ، وبطبيعة الحال رفض توماس الموافقة على هذا القرار مما

دفع هنرى إلى إعلان هذه القرارات دون موافقة توماس وتوقيعه عليها ، كما أن هنرى قرر تقديم توماس نفسه للمحاكمه أمام محكمه مدنيه حيث ادانته هذه المحكمه ، ومن الجدير بالذكر أن كثيرين من رجال الدين فى انجلترا انحازوا إلى جانب هنرى الثانى فى صراعه مع توماس ، مما دفع توماس إلى اللجوء إلى أحد الأديرة بفرنسا .

أرسل توماس من منفاه بالدير رساله إلى البابا الاسكندر الثالث (١١٥٩-١١٨١م) تفيد استقالته من منصب رئاسة أساقفه كانتر بورى . غير أن البابا رفض قبول هذه الاستقاله وشجع توماس على مقاومة هنرى لذلك استمر الصراع بين هنرى وتوماس إلى عام ١١٦٩م عندما تدخل لويس السابع ملك فرنسا والبابا الاسكندر الثالث لحل هذا الخلاف ، وطلب البابا من هنرى إعادة توماس إلى وظيفته وإلا ينزل عليه عقوبة الحرمان وعلى انجلترا كلها ، فرضخ هنرى لمطالب البابا وأعاد توماس إلى وظيفته.

وما أن عاد توماس إلى وظيفته حتى أصدر قرار الحرمان على كل رجال الدين الذين وقفوا إلى جانب الملك ، وكان هنرى مازال موجوداً فى نورمنديا ، وبعد عودته إلى انجلترا نقل إليه رجال الدين - الكارهين لتوماس - أخبار توماس بشيئ من التهويل ، مما أغضب هنرى . وقد فسر رجال هنرى هذا الغضب برغبة هنرى فى التخلص من توماس فسارعوا بقتله .

وقد انزعج هنرى عند سماعه خبر اغتيال توماس ، وحتى يبرأ ساحته من تهمه التحريض على قتله أمر بالقبض على القتله ، وأعاد كافة

حقوق الكنيسة حتى يرضى البابا ، وسار أبعد من هذا حيث زار قبر توماس ، ويقال أنه طلب من الرهبان أن يجلدوه عند قبر توماس حتى يكفر بذلك عن خطأه فى حق توماس .

وبذلك أنهارت قوى هنرى ، وانكسرت شوكته وزاد من انهاك قوى هنرى تلك المشاكل التى حدثت داخل أسرته وتآمر زوجته وولديه لخلعه من العرش ، وتحالفهم مع فيليب اوغسطس ملك فرنسا ضده .

كل هذه الأسباب ساعدت على انهيار هنرى ، فضعفت قواه وتبددت أحواله ، واستمر على هذا الوضع حتى وفاته عام ١١٨٩م .

ريتشارد الأول ١١٨٩-١١٩٩م :

عرف رتشارد الأول فى التاريخ باسم رتشارد قلب الأسد Richard the lion heart . ومن البداية تجب الإشارة إلى أن رتشارد ورث عن أمه مقاطعة اكوتين حيث عاش فيها اكثر أيام حياته ، حتى بعد أن تولى حكم انجلترا ، لم يذهب اليها سوى مرتين فقط ، مكث خلال كل منها بضعة أشهر، وذلك لجمع المال والجند للإستعانه بهما فى الحرب التى خاضها .

قضى ريتشارد معظم أيامه فى الحرب والمغامره والفروسيه ، خاصة فى النضال ضد فرنسا وملكها فيليب أوغسطس ، وفى الحروب الصليبية ، حيث قضى فى الشرق الفترت من ١١٨٩ إلى ١١٩٢م ، وأثناء عودته وقع أسيراً فى يد هنرى السادس ملك ألمانيا وظل حوالى عام فى الأسر ، خلال هذا

العام حاول أخيه حنا اغتصاب عرش انجلترا لكن والدته إليانور وقفت إلى جوار حقوق رتشارد الذى أطلق سراحه فى مارس عام ١١٩٤م.

وما أن عاد رتشارد إلى انجلترا حتى شن حرباً على فرنسا لإستعادة أملاك التاج ، تلك الحرب التى استمرت خمس سنوات نجح خلالها فى استعادة أملاكه .

ولم يمهله القدر لقطف ثمار هذا النصر ، حيث قتل بسهم طائش عام ١١٩٩م أطلق عليه من داخل أحد القلاع الاقطاعية التى ناصب رتشارد قلب الأسد أصحابها العداء .

حنا ١١٩٩-١٢١٦م

أما حنا أوجون فقد تولى حكم انجلترا بعد وفاة أخيه رتشارد ، وورث فيما ورثه حروبه مع فيليب اوغسطس ملك فرنسا ، ويعود سبب استمرار ذلك العداء مع انجلترا زمن حنا إلى استيلاء فيليب على أملاك التاج الانجليزى فى الأراضى الواقعه فى الجهات الشمالية من نهر اللوارعلى اثر رفض حنا المثول أمام المحكمه الملكية بباريس للدفاع عن حادثة زواجه من ايزابيلا اميره أنكولم ، حيث تم هذا الزواج بطريقه تخالف القواعد الدينية والاقطاعيه.

ولم يجن حنا من وراء هذه الحرب اى نجاح ، بل على العكس فقد هزم أمام فيليب اوغسطس وخسر معظم أملاك التاج الانجليزى بفرنسا ، ويعود السبب فى ذلك إلى عدم مساندة أمراء انجلترا له وتخليهم عنه .

اما سياسة حنا فى داخل انجلترا ، فقد تركزت حول محاولاته المتواصله لجمع المال اللازم لتغطية نفقات حروبه المتواصله .

وقد دفع هذا الوضع إلى وقوف أمراء انجلترا ضده ومساندتهم الكنيسة التى ناصبته العداء .

ولعل ماميز سياسة حنا الداخلية هو ادعائه لمطالب البابوية عام ١٢١٣م وإعلان تبعته للبابا حتى يصفح عنه ويرفع عنه عقوبة الحرمان التى سبق وأن انزلها به عام ١٢١٢م .

ويعود السبب الرئيسى فى انهيار قوة حنا وهزيمته أمام فيليب اوغسطس ثم اذلاله أمام البابا إلى ضعف مركزه داخل انجلترا نفسها . وقد انتهز أمراء انجلترا فرصة ضعف حنا وطالبوه بمنحهم عهداً يحافظ فيه على حرياتهم وحقوقهم من تعديات الملك ، وساندهم فى ذلك رجال الدين .

ولم يكن لدى حنا القوة التى يستطيع بها مجابهة هؤلاء الأمراء المتحالفين مع رجال الدين ، فاضطر إلى الاذعان لهذه المطالب ، وأصدر الوثيقه الدستوريه المشهوره باسم العهد الأعظم Magna Carta عام ١٢١٥م، وجاءت هذه الوثيقه فى نحو ٦٣مادة من أهمها :-

١- تحرير الكنيسة من تعديات الملك فهى حره لايتعدى أحد على حقوقها وحرياتها.

٢- منح كافة الأمراء الأحرار حرياتهم.

٣- عدم أحقية الملك فى جباية ضرائب جديدة غير وارده فى الحقوق الاقطاعية إلا بموافقة المجلس الكبير .

٤- عدم المساس بحريات سكان مدينة لندن ، وكافة المدن والموانى الانجليزية .

٥- عدم ايداع أحد الأفراد السجن بدون محاكمه

ويعتبر العهد الأعظم من أهم أحداث انجلترا فى تلك الفترة ، لأنه يعتبر فى المقام الأول دستوراً أشترط طاعة الملوك الانجليز لقوانين بلادهم.

وقد جاء فى هذا العهد تشكيل لجنه من خمسة وعشرين عضواً للإشراف على تنفيذ بنود هذا العهد ، وعلى العكس مما كان متوقعاً فقد التزم ملك انجلترا بشروط هذا العهد وأدى ماعليه من واجبات بينما أخل الأمراء بما ورد به من واجبات عليهم ، مما جعل الملك يعلن إلغاء هذا العهد لعدم تقيد الأمراء به ، وأيده فى ذلك البابا انوسنت الثالث ، لأنه لايجوز تطبيق شروط هذا العهد من جانب واحد، فعلى كل الاطراف الالتزام بما عليهم من واجبات.

غير أن الأمراء لم يوافقوا على إلغاء العهد الأعظم ، فتمسكوا به، ونشبت حرباًأهلية استعانوا خلالها بملك فرنسا فيليب اوغسطس ، وخلال تلك الحرب توفى حنا عام ١٢١٦م ليستريح بذلك من مشاكل انجلترا الداخلية والخارجية .

هنرى الثالث ١٢١٦-١٢٧٢م :

كان غاية الأمراء فى صراعهم مع الملك حصولهم على قدر كبير من الحريه وعدم الالتزام الكامل بتأدية ماعليهم من واجبات . وقد أتاحت لهم فرصة وفاة حنا تحقيق أحلامهم ، حيث آل حكم انجلترا بعد وفاة حنا إلى ابنه هنرى الثالث الذى كان فى التاسعه من عمره.

تولى الوصاية على هنرى الثالث وليم مارشال الذى بدأ عهده بتأكيد احترامه للعهد الأعظم ، وعفوه عن سائر الأمراء الخارجين عن طاعة التاج ، مما أعاد الهدوء إلى انجلترا . كما عقد هدفه مع ملك فرنسا . وبذلك حقق وليم الأمن والطمأنينة لانجلترا وحقن الدماء فتره من الزمن.

وبعد أن بلغ هنرى الثالث سن الرشد عام ١٢٢٣ م تولى حكم انجلترا، لكنه لم يمارس كامل حقوقه وسلطانه إلا عام ١٢٢٧م تلك الممارسة التى أغضبت منه كافة الأمراء ، فقد سعى هنرى إلى تأكيد حقوق التاج بفرض الطاعة على الأمراء ، ويبدو أن هنرى الثالث كان قد فقد ثقته فى أمراء انجلترا ، فأخذ فى إقصائهم عن مناصبهم فى الدولة وتعيين غير الانجليز فيها خاصة من سافوى وبواتييه الأمر الذى أثار الأمراء ضده ، ومن ثم تجدد النزاع بين الملكية الانجليزيه وبين الامراء.

وزاد من تمرد أمراء انجلترا على هنرى الثالث ، قيام الأخير بفرض مجموعة من الضرائب الجديدة ، وذلك بقصد جمع المال اللازم لتغطيه نفقات

الحروب ، بالإضافة إلى إخفاقه فى سياسته الخارجية كل ذلك ساعد على زيادة تمرد الأمراء ضد هنرى الثالث .

ولم يملك هنرى الثالث سوى الخضوع لمطالب الأمراء ، وأقصى كل الاجانب الذين عينهم فى مختلف مناصب الدولة ، كما شكل لجنه تمثل كافة الهيئات الاجتماعية لتصريف امور انجلترا فتره من الزمن ، ونجح أمراء انجلترا فى دفع عجله الحياه فى بلادهم .

وقد تولى سيمون دى مونتفرنت - والذى أصبح الحاكم الفعلى لانجلترا - قيادة المعارضة فى ذلك الوقت ، وحصلت المعارضه على حقوق كثيره جعلتها تمثل جانباً من جوانب التطور الدستورى بانجلترا ، حيث قرر عقد برلمان ثلاث مرات سنوياً وأن يتألف من مجلسين يضم الأول اثنى عشر عضواً والثانى خمسة عشر عضواً للاشراف على سياسة الملك ، وأن يكون أعضاء المجلسين على اتصال مستمر .

وبعد صراع مع الملك قرر سيمون عقد برلمان عام ١٢٦٥م وهو المسمى بالبرلمان الكبير أو الساخط وهو يمثل كافة طبقات انجلترا للنظر فى أمور البلاد . وإذا كانت هذه التجربه لم تستمر طويلاً حيث قتل سيمون نفسه، وانتصر الملك ، إلا أنها كانت خطوه ثانيه على طريق التطور الدستورى بانجلترا ، سبقتها خطوه أولى وهى العهد الأعظم.

ادوارد الأول ١٢٧٢-١٣٠٧م :

تولى ادوارد الأول حكم انجلترا بعد وفاة والده هنرى الثالث ، وقد وصف ادوارد هذا بأنه كان قوى الإرادة متمتعاً بدهاء سياسى كبير ، ذو خبرة كبيرة فى الميدان العسكرى .

وتعتبر فتره حكم ادوارد الأول من أنجح فترات الحكم بانجلترا . وقد حقق ادوارد لإنجلترا عدة مكاسب خارجية وداخليه .

ففى الميدان الخارجى استطاع فتح ويلز وكسب اسكتلندا عام ١٢٨٤م، كما أعاد للملكية كرامتها بعدم دفع المال الذى تعهد بدفعه الملك حنا للبابوية عقب استسلامه لها.

أما فى الميدان الداخلى فيعتبر أهم مكسب حققته إنجلترا فى عهد ادوارد هو انعقاد البرلمان النموذجى Model Parliament الذى أمر الملك ادوارد بعقده عام ١٢٩٥م.

وبذلك يكون ادوارد قد خطى خطوات أوسع فى تمتع انجلترا بالحقوق الدستوريه ، واطلق على ادوارد لقب جستنيان انجلترا نسبة إلى الامبراطور جستنيان الذى بذل جهداً كبيرا فىوضع مجموعته القانونية .

ويبدو أن انعقاد البرلمان النموذجى عام ١٢٩٥م كان تتويجاً لأعمال إدوارد التشريعية ، فقد سبق له إصدار عدة قوانين بدءً من عام ١٢٧٥م

عالجت شئون الإدارة والمعاملات التجارية والاقتصادية ، وقوانين اخرى خاصة بتنظيم المحاكم.

وثمة كلمة لابد الاشارة اليها وهى ان انجلترا حققت خلال أسرة البلانتاجنت تطوراً دستورياً كبيراً يتمثل فى ثلاث مراحل أساسية :

أولاً : العهد الأعظم الذى منحه الملك حنا عام ١٢١٥م .

ثانياً : برلمان سيمون دى مونتفرنت فى عهد هنرى الثالث عام ١٢٦٥م .

ثالثاً : البرلمان النموذجى فى عهد ادوارد الأول عام ١٢٩٥م.

وفى عام ١٣٠٧م توفى ادوارد الأول بعد أن أصبحت انجلترا تتمتع بقدر كبير من الحكم البرلمانى ، ولديها مجموعات متكاملة من القوانين العادله.

إدوارد الثانى ١٣٠٧-١٣٢٧م :

بعد وفاة ادوارد الأول عام ١٣٠٧م تولى حكم انجلترا ابنه ادوارد الثانى الذى لم يكن فى قوه والده ولا فى ذكائه السياسى ، ففشل فشلاً ذريعاً فى سياسة الخارجية ، كما أنه لم يحقق نجاحاً فى سياسته الداخلية

حيث ثارعليه أمراء انجلترا وانقسموا إلى عدة أحزاب ، ودارت بينهم الحروب . وانتهى الأمر بقتل ادوارد الثانى نفسه عام ١٣٢٧م بعد أن حل الخراب والدمار بانجلترا ، وانتشرت المجاعات بربوعها .

وارد الثالث ١٣٢٧-١٣٧٧م:

اختلف ادوارد الثالث عن أبيه ، حيث تمتع بشخصية قويه ، وكان حارباً ماهراً ، حكم فتره جاوزت الخمسين عاماً امتلأت بالأحداث الجسام،

لك تعتبر فتره حكمه من أهم فترات تاريخ انجلترا فى العصور الوسطى.

وأهم أحداث عصره الداخلية ظهور هنا وكلف John Wiclif المصلح ديني المشهور ، الذى طالب بتطهير رجال الدين من المفاسد ، وقاد حركة سلاحية كبرى فى تاريخ انجلترا ، تلك الحركة التى امتدت إلى كل أنحاء رب أوربا . كذلك حدث فى عصر ادوارد الثالث تفاقم الخلاف بين البابوية التاج الانجليزى.

غير أن أهم حدث شغل ادوارد الثالث كان اشتعال نار الحرب بين جلترا وفرنسا والتى استمرت قرابة مائه عام أو مايزيد ، ولذلك سميت حرب المائه عام.

حرب المائة عام ١٣٣٨-١٤٥٣م:

نشبت هذه الحرب بين انجلترا وفرنسا واستمرت أكثر من مئة عام ن عام ١٣٣٨-الى عام ١٤٥٣م ، خرجت منها فرنسا منتصره واستطاعت ن تحقق أهدافها ، وهى طرد الانجليز من أراضيها .

والباحث فى تاريخ هذه الفترة يجد مجموعة من العوامل ساعدت على تأزم العلاقات بين انجلترا وفرنسا ليس فقط فى القرن الرابع عشر الميلادى ولكن منذ وقت طويل ، يعود إلى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى وبالتحديد منذ عام ١٠٦٦م ، وهو العام الذى استطاع فيه وليم الفاتح النورمندى الحصول على التاج الانجليزى ، وفى نفس الوقت استمر أميراً على نورمنديا وهى إحدى إقطاعيات فرنسا ، وبذلك يصبح تابعاً لملك فرنسا .

هذا الوضع الذى أصبح فيه وليم الفاتح أوجد نوعاً من الصراع بينه وبين الملكية الفرنسية ، لأن فرنسا اعتبرت استمرار ملكيه حكام انجلترا لأراضى داخل فرنسا أمر غير جائز وعملت على طرد الانجليز من فرنسا ، وهذا هو السبب الرئيسى فى حدوث العداء بين فرنسا وانجلترا فى تلك الفتره.

بالإضافة إلى ذلك فإن التنافس على الوصول إلى عرش فرنسا بعد انتهاء حكم أسرة كابيه عام ١٣٢٨م عندما ادعى ادوارد الثالث ملك انجلترا أحقيته فى عرش فرنسا لأنه وريث والدته ايزابيلا ابنه فيليب الرابع ، لكن أمراء فرنسا أنفوا أن ينتقل التاج الفرنسى إلى حكام انجلترا ورشحوا لهذا المنصب فيليب السادس (١٣٢٨ -١٣٥٠م) أول ملوك أسره فالوا Valois وهو ابن عم فيليب الرابع . فما زاد من الصراع بين الدولتين .

ومن ناحية أخرى كان للعوامل الاقتصادية اثرها فى نشوب هذه الحرب ، خاصة وأن انجلترا كانت ترى فى بعض أراضى فرنسا أسواق جيده

لتصريف منتجاتها ، ووضعت آمالها فى تحقيق سيطرتها على جانبى بحر المانش من وراء هذه الحرب .

وأخيراً فإن الأحداث التى حدثت فى بلاد الفلاندرز التابعة للتاج الفرنسى ساعدت على نشوب هذه الحرب ، وذلك عندما ألقى الكونت لويس صاحب الفلاندرز القبض على جميع المقيمين ببلاده أو حتى المارين بها من الانجليز ، وذلك بإيعاز من سيده فيليب السادس ملك فرنسا ، وماتبع ذلك من أحداث .

وهكذا يمكن القول أنه نتيجة هذه العوامل بدأ العداء يدب بين ملوك فرنسا وملوك انجلترا ، وساعد بعد ذلك على نشوب حرب المائه عام . وإن كان هناك بعض الباحثين يرون أن السبب المباشر فى قيام هذه الحرب هو تلك الأخطار التى هددت التجاره الانجليزيه مع بلاد الفلمنك التابعة لفرنسا.

ويجب أن يكون معلوماً أن هذه الحرب التى نشبت مقدماتها بعد وفاة شارل ملك فرنسا عام ١٣٣٨م بدون وريث ، ماهى إلا فصلاً من فصول الصراع الذى بدأ عام ١٠٦٦م بين البلدين ، لكنه كان شديد الوقع على البلدين فى هذه الفترة المتأخرة ، وثمة ملاحظه أخرى وهى أن هذه الحرب لم تستمر مائه عام متصله وإنما كانت على فترات تثور ثم تخبو .

ويمكن تقسيم هذه الحرب إلى ثلاثة أدوار هى :

الدور الأول :

يبدأ الدور الأول بعام ١٣٣٨م عندما تأزم الموقف بين انجلترا وفرنسا ، بعد مطالبة ادوارد الثالث بعرش فرنسا ، ثم انفجر الموقف بين البلدين بعد حادثة الفلاندرز حيث قاد ادوارد الثالث ملك انجلترا اسطولاً كبيراً وتوجه به إلى بلاد الفلاندرز ، وبسرعه استعد ملك فرنسا للتصدى لهذا الاسطول ، وانتهى الأمر بحدوث موقعه سلويز sluys فى ٢٣يونيه عام ١٣٤٠م حيث تقابلت أساطيل انجلترا مع أساطيل فرنسا ، لكن التفوق فى هذه المعركة كان للأساطيل الانجليزيه التى احرزت نصراً حاسماً على فرنسا ،

وأعقب هذه المعركه البحرية ، نشوب عدة معارك بريه بين البلدين، حيث هاجمت القوات الانجليزية فرنسا اكثر من مره واحرزت بعض النجاح والتفوق فى اكثر من معركة منها معارك كريسى crecy وبواتييه واجنكورت، وكان ذلك عام ١٣٤٦م وهى المعروفة بسنة العجائب فى التاريخ الانجليزى.

ثم انتهى هذا الدور بعقد اتفاقية بين البلدين عام ١٣٤٧م بعد أن أخذت نذر الوباء الأسود فى الانتشار فى أوربا .

الدور الثانى :

أما الدور الثانى من هذه الحرب فكان ميدانه اسكتلندا التى اتحدت مع فرنسا لمحاربة انجلترا عام ١٣٨٥م ، واستطاع رتشارد الثانى ملك انجلترا

تدمير جيوش فرنسا وأحرق عدة مدن اسكتلندية ، وفى عام١٣٩٦م عقدت هدنه بين الطرفين لمدة عشرين سنه ، حرص الجانبان على عدم خرقها .

ثم استأنف حكام انجلترا حربهم ضد فرنسا بعد وفاة هنرى الرابع ، عندما أعلن هنرى الخامس ملك انجلترا (١٤١٣-١٤٢٢م) أحقيته فى عرش فرنسا استناداً إلى حق جده ادوارد الثالث ملك انجلترا الأسبق .

وخلال هذا الدور ظهرت جان دارك التى دافعت عن مدينة أورليان الفرنسية ضد الحصار الانجليزى ، ثم كانت نهايتها نهاية مؤسفه حيث تم إعدامها على يد القاده الانجليز بعد أن ساعدت فى تتويج شارل السابع ملكا على فرنسا عام ١٤٢٢م ، دون أن يدافع عنها ملوك فرنسا .

الدور الثالث :

أما الدور الثالث والأخير من هذه الحرب فكانت محاولات مستميتة من جانب فرنسا بقصد إجلاء الانجليز عن أراضيهم وذلك ابتداء من عام ١٤٤٩م. واستطاع ملوك فرنسا إحراز انتصارات كثيره على القوات الانجليزية حيث تم إنزال هزيمة كبيرة بالجيش الانجليزى فى معركه روان عام ١٤٤٩م ، وبعدها استطاع الفرنسيون الاستيلاء على معظم الممتلكات الانجليزية فى فرنسا عام ١٤٥٣م ، بحيث لم يبق فى يد الانجليز سوى كاليه.

وتم عقد صلح بين الطرفين فى نفس العام ١٤٥٣م ، اعترف الانجليز بمقتضى هذا الصلح بأحقية فرنسا فى كافة الممتلكات الانجليزية التى استولوا

عليها ، فيما عدا كاليه التى بقيت فى أيدى ملوك انجلترا . وبذلك تنتهى الحرب بين انجلترا وفرنسا والتى استمرت مائه عام أو يزيد .

وهناك مجموعة من النتائج المترتبة على هذه الحرب هى :

أولاً : ظهور الشجاعه الفردية وروح المباراة الفردية بين المتحاربين .

ثانياً : احترام التقاليد والقوانين الخاصة بالفروسية .

ثالثا : ازدياد الروح القومية فى كل من فرنسا وانجلترا .

رابعاً : مانتج عن هذه الحرب من تدهور اقتصادى فى كل من انجلترا وفرنسا ، مما ساعد على ظهور مجموعة من الممولين الإيطاليين والمرابين اليهود لإقراض ملوك انجلترا .

خامساً : ظهور قوة التجار والصناع فى مدن أوربا ، وتكوين نقابات اصحاب الحرف المختلفة.

سادساً : ظهور يقظة الفلاحين الذين طالبوا برفع أجورهم والتخلص من القيود الاقطاعية ورق الأرض ، وقاموا بالثورة من أجل ذلك فى فرنسا وانجلترا .

سابعاً : ظهور فنون حرب جديدة، واكتشافات جديدة فى آلات الحرب وأهمها اكتشاف البارود ومعرفة أوربا للمدفع عام ١٣٢٤ م .

ومعنى ذلك إذا كانت هذه الحرب قد أحدثت خراباً ودماراً فى كل من انجلترا وفرنسا، فإنها فى الوقت نفسه ساعدت على التقدم الحضارى بأوربا .

أوربا والحروب الصليبية

قد يفهم من اسم هذه الحروب أنها حروب دينية ولكنها فى الواقع أخذت من الدين والصليب ستاراً لتخفى أسبابها الحقيقية ، وقد اعترف بذلك بعضاً من رجال الدين المسيحى والكتاب الأوربيون ، فنجد مثلا تومسون " Thompson " فى كتابه Economic and Social History يذكر أن أحد بطاركة بيت المقدس وهو ثيودسيسوس بعث إلى أجناتيوس بطرق القسطنطينية يشرح له أنه لا يلقى من المسلمين أية أذى أو أية اضطهاد وأنهم أناس عادلون . ومعنى هذا أن ما استند عليه بعض الباحثين المتعصبين من أن الاضطهاد الذى أنزل بمسيحى الشرق كان الدافع الأساسى وراء قيام الحروب الصليبية ، لا أساس له من الصحة ، وقد أكد هذه الحقيقة المؤرخ فازيليف Vasilliev فى كتابه Byzantine Epire عندما قال أنه من الخطأ أن نأخذ حالات الاضطهاد الفردية التى لاقاها المسيحيون - المقيمون داخل البلاد الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى وأوائل الحادى عشر سبباً من أسباب الحروب الصليبية وذلك لأن هؤلاء المسيحيون تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية فى ظل الحكم الإسلامى وسمح لهم بالاحتفاظ بكنائسهم القديمة ، بل وبتشييد كنائس وأديرة جديدة . وحالات الاضطهاد الفردية هذه والتى أشار إليها المؤرخ فازيليف هى التى قام بها الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله عندما اضطهد أهل الذمة المسيحيين بمصر والشام ، وحقيقة الأمر فإننا بالفعل لانستطيع أن نأخذ أفعال الخليفة الحاكم بأمر الله دليلاً على ذلك ، لأنه يجب علينا أن نقرر حقيقة واقعة وهى أن سياسة الحاكم بأمر الله وشخصيته كانتا

تخرج عن الإطار العام للحاكم الإسلامى فى مصر والشام . والمعروف أن الحاكم بأمر الله ادعى الألوهية وأتى بأفعال تشير بوضوح إلى أنه كان مصاباً بمرض عقلى ، لذلك لا نستطيع أن نتخذ سياسته أو عهده نموذجا سار عليه بقية الحكام المسلمين سواء السابقين أو اللاحقين له ، خاصة إذا علمنا أن خلفاء الفاطميين السابقين على الحاكم بأمر الله قربوا إليهم أهل الذمة فاتخذ الخليفة العزيز زوجة له من أهل الذمة كما اتخذ يعقوب بن كلس اليهودى وزيراً له. أما الأسباب الحقيقية التى أدت إلى نشوب الحروب الصليبية وساعدت على نجاحها إنما تعود إلى مختلف الظروف التى أحاطت بكل من الشرق والغرب فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

المعروف أن البابوية قوة لا يمكن إغفالها فى تاريخ أوربا فى القرن الحادى عشر ، وذلك نتيجة حركة الإصلاح التى قامت بها لتطهير ما اعتراها من مفاسد وتدهور، ولم تلبث البابوية أن تفوقت على الإمبراطورية وانتصرت عليها وأثبت البابا أنه صاحب السيادة والكلمة الأولى في أوربا فى تلك الفترة. ونتيجة هذا الانتصار الذى أحرزته البابوية فى الغرب ، هو تشجيعها على إحراز نصر أكبر وأشمل على العالم المسيحى كافة سواء القسم الشرقى أو القسم الغربى فالمعروف أن الكنيسة الشرقية ظلت خارجة عن سلطان وسيادة البابا.

ومن ثم بدأت البابوية تفكر جديا فى مد أنفها إلى منطقة الشرق خاصة كنيسة بيت المقدس ، ورغبت فى السيطرة عليها ، وذلك ليتسنى لها بعد ذلك فرض سلطانها ونفوذها على مختلف الكنائس المسيحية .

ومن ناحية أخرى أخذت البابوية تفكر جديا في إيجاد ميادين جديدة للقتال بعد أن تحقق السلام في أوربا ، وذلك لصرف همة الأمراء والفرسان والمحاربين ، وفضلت أن تكون هذه الميادين على حساب أعدائها من المسلمين في كل من الأندلس وصقلية ثم نادت بعد ذلك بالحروب ببلاد الشام.

ويبدو أن هذه الفكرة الخاصة بإشعال نار العداء والقتال بين المسيحيين والمسلمين في كل من الأندلس وصقلية كانت جزءا من مخطط البابوية في قيام الحروب الصليبية ، وهو الأمر الذي لفت نظر أحد المؤرخين المسلمين المعاصرين للحروب الصليبية وهو ابن الأثير الجزري فقد أشار في كتابه " الكامل " إلى أن الحروب الصليبية ببلاد الشام إنما تعود بدايتها إلى المعارك التي نشبت بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس وصقلية .

ومن ناحية ثالثة فإن ظروف المجتمع الأوربي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في تلك الفترة ، ساعد كثيرا على تحقيق أهداف البابوية فالمعروف أن المجتمع الأوربي عاش في تلك الفترة في ظل النظام الإقطاعي الذي انقسم المجتمع الأوربي بمقتضاه إلى ثلاث طبقات ، الطبقة الدنيا أو الفقيرة وهي تضم جميع أهالي المجتمع الأوربي وكانت طبقة محرومة حتى من رغيف العيش كانت تعمل لتأكل الطبقة الغنية ، أما الطبقة الثانية وهي الطبقة الوسطى فكانت قلة قليلة كثيرًا ما انتقل أفرادها إلى مصاف الطبقة الدنيا نتيجة ما اعترى الغرب الأوربي من أزمات اقتصادية ومجاعات . أما الطبقة الثالثة فكانت الطبقة الغنية طبقة السادة الإقطاعيين أصحاب الأراضي

والإقطاعات وعاش أفرادها عيشة مترفة على حساب بقية الطبقات السابق ذكرها .

ونتيجة هذا الوضع الاقتصادى والاجتماعى السيئ الذى عاش فيه أفراد الطبقة الدنيا والوسطى سارع أفرادها إلى الانضمام إلى صفوف الجيوش الصليبية المتجهة إلى الشرق عسى أن يجدوا بالشرق بابا أوسع للرزق والاكتساب .

وفى نفس الوقت دفع هذا النظام - النظام الإقطاعى - كثيرا من الفرسان والأمراء الذين كانوا لا يمتلكون أراضى بسبب عدم اشتراكهم ميراث أبيهم نتيجة النظام الإقطاعى الذى يحتم أن يرث الابن الأكبر فقط دون بقية أخوته إقطاع أبيه ، فكان على هؤلاء الأمراء أن يبحثوا لأنفسهم عن أراضى جديدة إذا أرادوا أن يستمروا سادة ، ولتعذر وجود أراضى جديدة فى القارة الأوربية سارع هؤلاء الأمراء إلى تلبية نداء البابوية من أجل القيام بالحروب الصليبية ، ومثال ذلك الأمير بوهيموند النورمانى الذى سارع بالاشتراك فى الحروب الصليبية ليؤسس لنفسه إمارة نورمانية بمنطقة الشرق .

وهناك عامل اقتصادى آخر دفع المدن التجارية الأوربية مثل جنوا وبيزا والبندقية إلى الاشتراك فى الحروب الصليبية ، وذلك بقصد نيل المكاسب التجارية والاقتصادية من وراء الاشتراك فى الحرب ، غير أن هذه المدن التجارية كان يحركها مصالحها الاقتصاديةفقط دون النظر إلى ما سواه. وكان هذا هو السبب الذى دفع البندقية إلى توجيه الحملة الصليبية الرابعة إلى

القسطنطينية وهى المدينة المسيحية الآمنة بدلا من توجيهها إلى مصر التى كان بينها وبين البندقية اتفاقيات تجارية .

ومن العوامل السياسية الأخرى رغبة بعض الملوك فى الحصول على صيت ذائع من وراء اشتراكهم فى الحروب الصليبية أو اتقاء شر سيلحق بهم، مثلما دفع الإمبراطور فردريك الثانى إلى الاشتراك فى الحملة الصليبية السادسة .

ونتيجة تلك العوامل كان من السهل على البابوية توجيه أهالى الغرب الأوربى بمختلف الطبقات إلى الاشتراك فى الحروب الصليبية المزمع القيام بها.

ولم تلبث أن جاءت الفرصة سانحة لتحقيق أهداف البابوية عندما استنجدت الإمبراطورية البيزنطية بها .

استنجاد الإمبراطورية البيزنطية بالغرب الأوربى :

من المعروف أن أهم نتائج موقعة مانزكرت عام ١٠٧١م ، هى سيطرة السلاجقة على إقليم أرمينية وكابادوكيا ، وما صاحب ذلك من ضعف القوات البيزنطية الذى ساعد على توغل التركمان فى آسيا الصغرى ، وأقاموا لهم عاصمة هى قونية ، وهى المدينة التى أصبحت فيما بعد عاصمة دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى كما واصل التركمان زحفهم إلى شواطئ بحر إيجه والبوسفور وبذلك هددوا القسطنطينية ذاتها .

ولم يلبث الأباطرة البيزنطيين الذين تولوا عرش الإمبراطورية البيزنطية عقب مانزكرت ، أن طلبوا العون من الغرب الأوربى من أجل صد هجمات السلاجقة من ذلك ما حدث من إرسال الإمبراطور ميخائيل السابع (١٠٧١-١٠٧٩م) إلى البابا جريجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥م) شارحاً له ما حدث من أحداث فى منطقة الشرق ، وكيف ضعفت قوة الإمبراطورية البيزنطية ، وأنها لم تعد تقوى على صد هجمات السلاجقة ، وطلب منه إرسال نجدة سريعة لإنقاذ الإمبراطورية البيزنطية ، فى مقابل أن يزيل كل الخلافات الكنسية بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية ، غير أنه من سوء حظ ميخائيل السابع أن البابا جريجورى السابع كان فى ذلك الوقت مشغولاً بصراعه مع الإمبراطورية الغربية لذلك لم تتح لجريجورى فرصة إجابة طلبات ميخائيل السابع .

وباعتلاء الإمبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١-١١١٨ م) عرش الإمبراطورية البيزنطية عقب الإطاحة بالإمبراطور نقفور (١٠٧٩-١٠٨١م) بدأت فترة نشطة من فترات تاريخ الإمبراطورية البيزنطية نتيجة ما تمتع به الكسيوس كومنين من نشاط ومهارة فى الشئون السياسية والعسكرية .

وبادر الكسيوس كومنين بإرسال رسله إلى البابا أوريان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩م) مستصرخا إياه ، لإرسال نجدة عسكرية لإنقاذ أراضى الإمبراطورية البيزنطية من خطر الزحف السلجوقى . وكان البابا أوربان الثانى فى ذلك الوقت يرأس مجمع بياكنزا الدينى ، وحضر رسول الكسيوس

كومنين هذا المجمع وتحدث بفصاحة عما يلاقيه البيزنطيون الشرقيون من مصاعب ومخاطر فى آسيا الصغرى .

البابا أوربان الثانى ومؤتمر كلير مونت :

ولم يكن البابا أوربان الثانى فى حاجة لمن يثير حماسه الدينى ضد المسلمين فقد كان يفكر فى شن حرباً مقدسة ضد المسلمين أيا كانوا ، سواء فى بلاد الشام أم فى آسيا الصغرى أم فى صقلية أم فى الأندلس ، وبناء على أفكار أوربان هذه وتشجيع منه قام الكونت روجر النورمانى بغزو جزيرة صقلية وانتزاعها من يد المسلمين عام ١٠٩١م . ودعا البابا مسيحى الغرب الأوربى إلى نبذ الخلافات القائمة بينهم وعقد هدنة الله وسلام الله ويوجهوا نشاطهم الحربى إلى خارج القارة الأوربية ضد المسلمين .

وسارع البابا أوربان الثانى إلى عقد مجمع دينى فى كليرمونت عام ١٠٩٥ م افتتحه بخطبة طويلة شرح فيها المقصود بالحرب المقدسة ودعا فيها أهالى غرب أوربا المسيحيين إلى التكاتف من أجل استرجاع بيت المقدس من يد المسلمين وتأمين طرق الحج إلى الأماكن المقدسة ببلاد الشام ، ولم ينس أوربان أن يعد المتطوعين فى هذه الحرب المقدسة بالخير والثواب وغفران الكنيسة لذنوبهم وأشار إلى ما سيعود عليهم من خير عميم وممتلكات واسعة وأراضى جديدة يستولون عليها فى منطقة الشرق . كذلك اعتبر أوربان الثانى كل مشترك فى مضمار هذه الحروب فى حمى الكنيسة فتكون

ممتلكاته وأمواله فى الغرب الأوربى فى حمى الكنيسة ولا يستطيع أحد المساس بها.

ولا يخفى علينا أن البابا أوربان الثانى أراد بهذه الحروب أن تكون مكسبا للبابوية والكنيسة الغربية ،لا حباً فى مساعدة الإمبراطورية البيزنطية ومساندتها ضد السلاجقة ، فقد أراد أوربان الثانى أن تكسب الكنيسة الغربية والبابوية من وراء الاستيلاء على بيت المقدس نصرا كبيرا بحيث تصبح بمقتضاه الكنيسة الغربية هى المشرفة والمهيمنة على الكنائس الشرقية بالإضافة إلى إشرافها على الكنائس الغربية وتحقيق نوعاً من أنواع الزعامة على العالم المسيحى مشرقه ومغربه وهذا ما أخذت تصبوا إليه البابوية فى تلك الفترة خاصة بعد تلك القوة التى حققتها بعد حركة الإصلاح الكلونية.

وبعد انقضاء مجمع كليرمونت أخذ بطرس الناسك على عاتقه مهمة نشر قرارات مجمع كليرمونت فى مختلف بلاد غرب أوربا فطاف معظم أرجاء أوربا داعيا أهلها إلى الانضمام والمشاركة فى الحروب المقدسة (الصليبية) .

وفى أيام قليلة التف حول بطرس الناسك عدة آلاف من رعاع وفقراء الغرب الأوربى الذين دفعتهم ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية السيئة إلى المشاركة فى تلبية الدعوة بوازع من الضيق الاقتصادى والوضع الاجتماعى السيء.

حملة العامة :

ومهما يكن من أمر فانه لم يكد يحل ربيع عام ١٠٩٦م (٤٨٩هـ) حتى خرج من الغرب جموع غفيرة من العامة صحبة بطرس الناسك ، وشقت طريقها عبر البلقان متجهة إلى الشرق . وسرعان ما أحس الإمبراطور البيزنطى بخيبة أمل كبيرة ، بعد أن طلب من البابوية والغرب إمداده بجيوش حربية منظمة تساعده فى دفع خطر السلاجقة ، فإذا هم يفاجئون بوصول حشود من الدهماء يعتدون على أهالى الإمبراطور الآمنين ويسلبوهم ما يمتلكون ، وإزاء ذلك الخطر الجديد ، أسرع الإمبراطور البيزنطى بنقل تلك الجموع الصليبية إلى آسيا الصغرى حتى لا يمكنهم من أن يعيثوا فسادا فى عاصمته . ولم يكن منتظرا أن يستطيع أولئك العوام الذين يجهلون أساليب الحرب واستخدام السلاح الصمود فى وجه السلاجقة، فقضى السلاجقة عليهم قضاءاً تاماً فى أكتوبر ١٠٩٦م.

الكسيوس كومنين والحملة الصليبية الأولى :

تكونت الحملة الصليبية الأولى من أربعة جيوش كبيرة خرجت من الغرب الأوروبي واتخذت الطريق البرى الموصل إلى آسيا الصغرى عبر أراضى الإمبراطورية البيزنطية ، وكان على رأس كل جيش أمير فتولى قاد الجيش الأول الأمير جود فرى دى بوايون ورافقه أخيه بلد وين البولونى بينما قاد الجيش الثانى الأمير بوهيموند وهو أضخم وأخطر جيوش الحملة الصليبية الأولى وساعده فى القيادة ابن أخيه الأمير تانكرد، وتزعم ريموند التولوزى

قيادة الجيش الثالث بينما قاد الجيش الرابع روبرت دوق نورمنديا وبصحبته ستفن كونت بلوا ، ولم ينس البابا أوربان أن يرسل صحبة هذه الجيوش مندوباً عنه همار ، وبوصول أول جيش صليبى — وهو جيش جود فرى دى بوايون — إلى حدود الإمبراطورية البيزنطية بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ هذه الحملة .

فقد وجد الكسيوس كومنين فى وصول حملات غربية منظمة على رأسها قادة كبار مشهورين متجهين أساسا إلى تخليص بيت المقدس من يد المسلمين وجد فى هذه الحملات بهذا الشكل خيبة أمل كبيرة لآماله فلم تأت هذه الحملات وفق ما كان يشتهى ، فقد أرد الإمبراطور الكسيوس كومنين من الغرب الأوربى أن يرسل له مجموعة من الجنود بما يحملون من عدة وقادة يعملون تحت قيادة الإمبراطور البيزنطى وقادة بيزنطيين وسيقوم الإمبراطور البيزنطى بتوجيه هذه القوات كما يشاء وكيف يشاء ، أما الآن فقد حضرت جيوش منظمة على رأس كل منهما قائد لا يرأسه الإمبراطور البيزنطى وغير مرتبط بولاء أو قسم بالإمبراطور البيزنطى بل ضمت الجيوش الأوربية قادة لهم سوابق خطيرة فى الهجوم على الإمبراطورية البيزنطية .وفى نفس الوقت فإن دعوة البابا أوربان للحروب الصليبية بالشكل الذى دعا به فى مؤتمر كليرمونت وبالأسلوب الذى اتخذه بطرس الناسك لم يلبى كل طلبات الكسيوس كومنين الذى ما أراد سوى وقف تقدم السلاجقة فى أراضى وممتلكات البيزنطيين بآسيا الصغرى .

وعلى هذا النحو تكون وجهات نظر كل من البابوية والدولة البيزنطية مختلفة تماماً فى طبيعـــة وأهـداف الحروب الصليبيـة وإذا كـــان الكسيوس كومنين قد رأى فى هذه الحروب الصليبيـــة الوسيلة إلـى استعادة الأراضـى المقدسة باسم البابوية مما يتيـح للبابويـة فرصـة السيادة علـى مختلـف كنـائس الشرق والغرب لذلك حرص أوربان علـى إرسـال مبعوث بـابوى أو منـدوب بابوى للرئاسة والإشراف على الحملة الصليبية الأولى وكان هذا المبعوث هـو الأسقف "أدرهما " .

ونتيجة لاختلاف وجهات النظر بين الكسيوس كومنيـن والبابويـة بـدأ الكسيوس كومنيـن يفكر جديا فـى هـذه المشكـلة التـى أطـلق علـيها اسـم المسألة الصليبيـة عسى أن يجد حلا أو أسلوباً جيداً لمعاملـة جيـوش الحملـة الصليبية الأولى ،

وأخيراً اهتدى الكسيوس كومنبن إلـى حل وهـو ضـرورة تنظيـم العلاقـة بينـه وبين قادة جيوش الحملة الصليبية الأولى ، وبيـن الإمـبراطور البـيزنطى عـن طريـق ولاء أو قسـم يقسـمه هؤلاء القـادة للإمـبراطور البـيزنطى يتعهـدون بمقتضاه بالعمل تحت رايـــة الإمبراطور البيزنطى ليضمـن عـدم خروجهـم على الإمبراطورية البيزنطية هـذا من جهة وأن يتعهدوا بـرد كـل الأراضـى التى سيقومون باستردادها من السلاجقة من جهة أخرى .

وبعـد تـردد مـن جـانب بعـض القـادة الصليبيـن أقسـم معظـم قـادة الحملـة الصليبيـة الأولـى يميـن الـولاء للإمـبراطور البـيزنطى ومـن ثـم

سمح لهم الكسيوس بعبور القسطنطينية والانتقال إلى الشاطئ الآسيوي المقابل .

من الثابت تاريخياً أن معظم أمراء الحملة الصليبية الأولى طمعوا فى تأسيس إمارات صليبية لهم فى منطقة الشرق ، ولم يكن هذا التفكير غريبا عليهم فنحن سبق وأن عرفنا أن الأسباب الحقيقية التى دفعتهم إلى الاشتراك فى مضمار الحروب الصليبية تعود إلى الظروف السياسية والاجتماعية التى عاشوها فى أوروبا ، وحضر كل أمير صليبى إلى الشرق حاملا عدة أفكار من أهمها إنشاء إمارات صليبية فى الشرق .

وخير شاهد على هذا الرأى هو ما حدث بالفعل من أحداث فبعد وصول الصليبيين إلى منطقة الشرق بدأت تظهر بوضوح نوايا الأمراء الصليبين إذ أخذ كل أمير صليبى يعمل لحسابه الخاص من أجل الحصول على إقطاع ليكون نواة لإمارة صليبية تحمل اسمه .

أولاً : بالدوين البولونى وتأسيس إمارة الرها :

منذ وصول بلد وين البولونى إلى قيليقية فكر فى الانفصال عن الجيش الصليبى والبحث عن منطقة أو إقطاع يصلح لتأسيس إمارة صليبية له . وبالفعل لم يلبث بلدوين أن اتجه إلي طرسوس والمصيصة ، لكن يبدو أن تنكرد النورمانى قد تبعه إلى هذه المناطق وحدث صراع بين الأميرين حول الاستيلاء على المدينتين ، مما دفع بلدوين إلى العودة والانضمام إلى الجيش الصليبى مرة أخرى وكان الجيش الصليبى قد وصل فى زحفه فى تلك

الفترة إلى مرعش . وليس معنى هذا أن بلدوين قد أهمل التفكير فى إنشاء إمارة صليبية إذ لم يلبث أن راوده التفكير فى ذلك مرة أخرى ، فاتجه فى عام ١٠٩٧(٤٩١هـ) إلى تل باشر وراوندان واستولى عليها.

وأثناء وجود بلدوين البولوتى بتل باشر جاءته فرصة طيبة للاستيلاء على مدينة ذات شهرة عظيمة وهى مدينة الرها ، فقد حدث أن وجه إليه الدعوة ثوروس الأرمنى حاكم الرها لمساعدته حيث كان ثوروس هذا رجلا كبير السن فى حين طمع فى الاستيلاء على الرها كل من البيزنطيين والأتراك السلاجقة لذلك فضل استدعاء أحد أمراء الصليبين لمساعدته ضد أعداءه واستخدامه كمحارب مرتزق أي بأجر معلوم.

ولبى بلدوين البولونى نداء ثوروس وتحرك بجنده من تل باشر إلى الرها مجتازا كل المخاطر التى اعترضت طريقه وبوصول بلدوين البولونى إلى الرها استقبله أهالي المدينة الأرمينية استقبالا حافلا . مما أوغر صدر ثوروس عليه وخشى من علو شأن بلدوين مما قد يؤدى إلى زعزعت مركز ثوروس نفسه.

ولم يلبث بلدوين أن أظهر رغبة كبيرة فى العودة إلى تل باشر والتخلى عن ثوروس وذلك عندما علم بأن ثوروس لن يمنحه سوى أجر معلوم فى مقابل تقديم خدماته دون أن يكون له نصيب فى حكم الرها، ولما كان ثوروس فى حاجة شديدة إلى مساعدة وقوة بلدوين لذلك أعاد النظر مرة

أخرى فى أمر بلدوين وفى أن يتبنى بلدوين بحيث يكون شريكا ثم خلفا له فى حكم الرها كمكافأة له على ما سيقدمه من مساعدات.

وبعد أن اطمأن بلدوين البولونى إلى مستقبله فى الرها بدأ قتال الأتراك وأنزل هزيمة ساحقة بصاحب سمسياط . وقد أضفى هذا النصر هالة كبيرة على بلدوين البولونى، وأظهره بمظهر المدافع الأول عن الرها ، مما أدى إلى أن يتمسك به أهل الرها ، وفى نفس الوقت كانت مكانة ثوروس تتضائل شيئا فشيئا فى نظر أهالى الرها وذلك نتيجة عدة أسباب . من أهمها : مذهب ثوروس الدينى المخالف لمذهب أهالى الرها، مما ساعد وأوجد كراهية بين أهالى الرها وبينه كذلك كان لسياسة ثوروس الاقتصادية وإرهاق أهالى الرها بالضرائب سببا فى زيادة كراهية أهالى الرها لثوروس، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان ثوروس بخيلا مستبدا سيئ الخلق ، ولكل هذه الأسباب ازداد كره أهالى الرها لثوروس وتمنوا الخلاص منه . وأخيرا شبت ثورة ضد ثوروس قام أهالى الرها خلالها بمحاصرة القلعة التى احتمى ثوروس بها، ونهبوا أمواله وخزائنه ، ولاشك فى أن بلدوين البولونى كان وراء هذه الثورة ولكنه أظهر تعاطفا مع ثوروس . وأخيرا وفى لحظة غضب أهالى الرها على ثوروس نادوا بإعدامه رميا من فوق اسوار القلعة ونفذ هذا الحكم وأعدم ثوروس. وبهذه الصورة انتهى حكم ثوروس الذى تبنى بلدوين البولونى ليسانده فى حكم الرها دون أن يعلم أن نهايته ستكون على يد بلدوين هذا .

ولم يلبث أن نادى أهل الرها ببلدوين حاكما عليهم فى مارس عام ١٠٩٨م وأقسموا له يمين الولاء وبذلك تحقق حلم بلدوين فى أن يصبح حاكما على احدى الإمارات ومن ثم أخذ بلدوين يعمل على تأسيس هذه الإمارة الصليبية ، وبذلك تعتبر إمارة الرها الصليبية هى أول إمارة صليبية بالشرق .

بوهيموند الأول النورمانى والحملة الصليبية الأولى :

فى مستهل عام ١٠٩٦م (٤٨٩هـ) عندما كان بوهيموند النورمانى- أصغر أبناء روبرت جويسكارد - وعمه الكونت روجر الأول - كونت جزيرة صقلية - يحاصران مدينة أما لفى التى ثارت ضد النورمان فى جنوب إيطاليا ترامت إلى مسامعهما أن جيوشا غفيرة خرجت من فرنسا ولوثرنجيا وألمانيا فى طريقها إلى بيت المقدس تلبية لدعوة البابا أوربان الثانى.

ويشير المؤرخ المجهول - مؤرخ حملة بوهيموند النورمانى إلى أن بوهيموند جد فى الاستفسار عن نوع السلاح الذى تستعمله هذه الطائفة فى القتال ، وعن الشعار المسيحى الذى تحملة فى الطريق وعن هتاف التجمع الذى يهتف به فى المعارك فقيل له : أنهم يستعملون سلاحا ملائماً للحرب ويجعلون صليب المسيح على أحد الكتفين أو فيما بينهما وأما هتافهم الذى يرددونه جميعا فى نفس واحده فهو : هذه إرادة الله هذه إرادة الله هذه إرادة الله . وفى الحال امتلأ بوهيموند بالروح القدس ، وأمر بتجزئه عباءة ثمينة كان يرتديها إلى أجزاء صغيرة وأن تعمل صلبانا.

والنص السابق يوضح وجهة نظر مؤرخى الحروب الصليبية الغربيين فما هى حقيقة الموقف بالنسبة للأمير بوهيموند؟ لقد أدرك بوهيموند أهمية الحركة الصليبية ، ومايمكن أن يفيد منها وخاصة أن عمه روجر كونت صقلية لم يسمح له بأن يضيف إلى أملاكه دوقية أبوليا فى وقت كانت ملكية الأراضى أمرا هاما لأمراء الغرب الأوربى ، لذلك رأى بوهيموند أنه من الممكن إذا شارك فى تلك الحروب الجديدة أن يقيم لنفسه إمارة على الساحل الشرقى للبحر المتوسط . وزاد هذا الأمل قوة أن الشرق لم يكن غريبا على بوهيموند إذ سبق له أن قاد حروبا كثيرة ضد الإمبراطورية البيزنطية كان النصر حليفه فيها فالمعروف أن بوهيموند هو الذى خلف أباه روبرت جويسكارد فى قيادة الجيوش النورمانية الغازية للقسطنطينية عام ١٠٨١م . هذا بالإضافة إلى أن فكرة محاربة المسلمين بالذات كانت لاتزال ماثلة فى أذهان النورمان بعد انتزاعهم صقلية من أيدى المسلمين فلماذا لايواصل النورمان هذه الحروب ضد المسلمين فى الشرق ؟

وهكذا رأى بوهيموند فى الحروب الصليبية فى الشرق فرصة تمكنه من إقامة إمارة للنورمان فى آسيا على حساب كل من السلاجقة المسلمين والبيزنطيين المسيحيين.

ولم يلبث بوهيموند أن الهب الحماسة فى نفوس أتباعه عندما مزق ثوبه الثمين الذى كان يرتديه إلى أجزاء صغيرة لتعمل منها صلبانا يضعونها على أكتافهم . وعندئذ انطلق الفريق الأعظم من الفرسان المحاصرين للمدينة

- أما لقى - فى صوله شديدة وانضموا إلى جانبه ، حتى أن الكونت روجرت - صاحب صقلية - وجد نفسه وحيدا وعاد إلى صقلية شاكيا واغتم لانصراف جيشه عنه . ومن ناحية أخرى لايمكن أن نغفل الأطماع الشخصية لكثير من الأمراء النورمان مما جعلهم يؤيدون بوهيموند فى موقفه.

وهكذا تضافرت كل العوامل لتدفع الجنود والأمراء للاشتراك مع بوهيموند فى حملته ومن أبرز النورمان الذين اشتركوا مع بوهيموند كان ابن أخته تانكرد الذى لعب دورا كبيرا فى الحملة الصليبية الأولى وإليه آلت انطاكية من بعد بوهيموند ، كذلك انضم إلى بوهيموند جمع حافل من أمراء النورمان نذكر منهم الماركيز أودو ، وابنا عمه ريتشارد ورانيولف أمير سالرنو ورانيولف بن ريتشارد وجفرى واخوته وروبرت صاحب آنسا وجيرار اسقف اربانو، وغيرهم من النورمان.

وفى أكتوبر عام ١٠٩٦ م (٤٨٩هـ) أبحرت حملة بوهيموند من بارى قاصدة القسطنطينية ، ولم يكن هناك شك فى أن هذه الحملة النورمانية أثارت المخاوف فى نفوس المعاصرين داخل الإمبراطورية البيزنطية ، فيشير المؤرخ النورمانى المصاحب لحملة بوهيموند إلى أن هؤلاء السكان كان قد استبد بهم الخوف من عسكر السيد بوهيموند الشجعان ، والواقع أن النورمان لهم سوابق خطيرة فى الهجوم على الإمبراطورية البيزنطية فضلاً عن أن هذه الحملة جاء على رأسها بوهيموند بن روبرت جويسكارد

الذى كانت محاولته لغزو الدولة البيزنطية وتهديد القسطنطينية عام ١٠٨١م (٤٧٤هـ) لاتزال ماثلة فى أذهان البيزنطيين.

هذا إلى أن الجيش النورمانى يعتبر أكبر قوة ذات خطر اشتركت فى الحملة الصليبية الأولى ، فكان لزاما على بوهيموند أن يمحو تلك الآثار ويعمل على كسب ود الإمبراطور الكسيوس كومنين (١٠٨١-١١١٨م) وثقته وهو الأمر الذى ساعده فى تحقيقه شخصيته ومواهبه الكثيرة وقدرته على التظاهر بالصدق والإخلاص من ذلك حرص بوهيموند على أن يتخذ مسلكا طيبا نحو الإمبراطور البيزنطى داخل أراضى الإمبراطورية فمنع أتباعه النورمان من الاعتداء على أهالى البلقان رغم ماتعرض له من إساءات من قبل جنود الإمبراطور البيزنطى ، هذا إلى أنه بادر بإرسال السفراء إلى الإمبراطور ووعده أيضا بأنه لن يحاول دخول مدينة من المدن البيزنطية الواقعة على طريقه ، بل أنه وافق على أن يرد كل ما استولى عليه رجاله من الدواب أثناء سيرهم.

ففى أوائل أبريل عام ١٠٩٧م وصل الجيش النورمانى بقيادة بوهيموند إلى تراقيا بالقرب من القسطنطينية ، حيث قرر بوهيموند الاتصال بالإمبراطور الكسيوس ليصالحه ويعبر له عن إخلاصه ونواياه الطيبة من ناحية وليقف على ماكان يجرى من مفاوضات بين الإمبراطور البيزنطى وبقية القادة الصليبيين الذين سبقوه من ناحية أخرى.

ولم يلبث بوهيموند أن ترك قيادة جيشه لابن أخته تانكرد خارج القسطنطينية وتقدم إلى القسطنطينية غير مستصحب معه سوى قلة قليلة من الفرسان وفق ما اشترط عليه الإمبراطور. فاستقبله الكسيوس كومنين بتشريف عظيم وقدم بوهيموند الولاء والطاعة للإمبراطور البيزنطى. وفى المفاوضات التى دارت بين الطرفين حرص بوهيموند على التظاهر بالصدق والإخلاص والذكاء والدبلوماسية ، أعانته كثيرا على أن يسترد الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين ثقته فيه. ومن الجدير بالذكر فإن الاميرة آنا كومنين ابنة الإمبراطور الكسيوس كومنين أفاضت فى مدح بوهيموند، فوصفته بالشجاعة والشهامة وحسن تكوينه الجسمى، وقوة جاذبيته وشخصيته وذكائه.

وسرعان ما أقسم بوهيموند يمين الولاء للإمبراطور البيزنطى وأعلن تبعيته له فغمره الإمبراطور بالأموال والهدايا الثمينة. ولم ينس بوهيموند أن يطلب من الإمبراطور البيزنطى أن يعينه قائدا عاما للقوات الامبراطورية فى الشرق بالإضافة إلى منحه إقطاعا كبيرا فى منطقة أنطاكية ، غير أن الإمبراطور الذى لم يتأكد بعد من إخلاص بوهيموند استطاع أن يتملص من طلبه الأول فى حين أجابه إلى طلبه الثانى ، فوعد بوهيموند بمنطقة واسعة حول أنطاكيه، وبذلك تكون هذه الاتفاقية قد حددت مولد إمارة انطاكية النورمانية فيما بعد.

ولم يلبث أن عاد بوهيموند إلى تسلم قيادة جيشه من ابن أخته تانكرد الذى أنكر سياسة خاله، وآثر أن يجتاز القسطنطينية ليلا دون أن يقسم يمين

الـولاء للإمـبراطور البـيزنطى. وفـى ٢٦ أبريـل ١٠٩٧م ، عـبر الجيـش النورمانى البوسفور ليحتل مكانه على الشاطئ الآسيوى إلى جانب بقية جيوش الصليبيين.

(ب) استيلاء بوهيموند على أنطاكية :

استغل بوهيموند النورمانى الظروف السيئة التـى أحـاطت بـالصليبيين أثنـاء محاصرتـه أنطاكيـة، وأظهـر أنـه ينـوى العـودة إلـى أوربـا ، ممـا جعـل مختلف القادة والجنود الصليبيين يتمسكون به وعرضوا عليه حكم أنطاكية إذا سقطت فى يديه فقد اشترطوا أن الذى يفتح أنطاكية يتولى حكمها ، لكنه يجـب أن يذكـر أن هـؤلاء القـادة (الصليبيـن) سـبق أن أقسـموا يمينـا بـالولاء للإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين وتعهدوا له برد أنطاكية وغيرها من الممتلكات التى كانت تابعة له. لكن القـادة الصليبيـن أخـذوا يتحللـون مـن هـذا القسم معتمدين على أنهـم طلبـوا مـن الإمـبراطور البـيزنطى النجـدة ولـم يلـب طلبهم ، مما جعله غير جدير باسترداد أنطاكية .

وعلى هذا الأسـاس أخـذ بوهيمونـد النورمـانى يفكـر جديـا فـى إيجـاد وسيلة يستطيع بها الاستيلاء على أنطاكية وهو فيروز الأرمنـى الـذى راسـله بوهيموند ووعده بإقطاع داخل أنطاكية فى مقابل قيام فيروز بفتح باب أنطاكية أمام جيوش بوهيموند النورمانى . وتمت المؤامرة فى مساء يوم ٣ يونيـة عـام ١٠٩٨م، ودخلت الجيوش الصليبية إلى أنطاكية وقتل ياغى سيان.

ولكن إذا كانت الجيوش الصليبية قد دخلت إلى أنطاكية واستولت عليها وحمل بوهيموند لقب سيد أنطاكية فإن هذا النصر لم يلبث أن انقلب إلى مأساة عندما وصلت جيوش كربوغا وفرضت الحصار على أنطاكية وبها الصليبيون . غير أن بوهيموند استطاع أن يتخلص من حصار كربوغا بفضل عدة أخطاء عسكرية وقع فيها كربوغا نفسه وبفضل حماسة الجيش النورمانى، ثم استطاع أن يتخلص من منافسة الأمير ريموند الرابع له فى حكم أنطاكية.

(جـ) بوهيموند الأول أميراً أنطاكية :

تحلل بوهيموند من اليمين التى أقسمها للإمبراطور الكسيوس كومنين بأن الإمبراطور البيزنطى لم يقدم المساعدات للصليبيين أثناء حصارهم لأنطاكية مما أفقده أى حق فيها. وذكرت الأميره آنا كومنين ابنة الإمبراطور الكسيوس كومنين نص الخطاب الذى أرسله بوهيموند إلى الإمبراطور الكسيوس كومنين عقب استيلائه على أنطاكية وجاء فيه " لست أنا بل أنت – أى الإمبراطور – سبب كل هذا وذلك لأن وعدك لنا بأنك سوف تتبعنا بجيش جرار ، ولكنك لم تفكر أبدا فى عمل أى شىء من أجل تحقيق وعدك وعندما وصلنا إلى أنطاكية قضينا ثلاثة أشهر تحت ظروف صعبة للغاية ضد العدو ، هذا بالإضافة إلى ما تعرضنا له من المجاعة التى لم نعتادها من قبل ونتيجة لكل هذا فقد أكل الكثير منا مأكولات يحرمها الدين والقانون ، حتى أن

تاتيكوس وهو خادمكم الملكى الذى خولته فى خدمتنا قد تركنا لأخطارنا ورحل" .

وقد أشار المؤرخ المجهول إلى موقف تاتيكوس بقوله عندما ترامى إلى عدونا تاتيكوس أن جيوشا من الأتراك زاحفة علينا، استبد به الفزع الشديد، وراح ينتحل الافتراءات الكاذبة فقال : أيها السادة وأيها الرجال الحكماء ، انظروا مانحن فيه من بالغ الضيق، لقد غدمنا النجدة وضاقت بنا السبل فدعونى أعود إلى بيزنطة ، وكونوا على ثقة من أننى سأحضر إليكم هنا ببحر لجى من السفن المحملة بالحنطة والنبيذ والشعير واللحم والطحن والجبن ولما ختم هذا العدو كلامه مضى مخلفا كل مايملكه، وهو حانث فى يمينه.

وكان أن أدت سياسة بوهيموند هذه إلى صراع مرير مع الإمبراطور البيزنطى مما دفع بوهيموند إلى توطيد مركزه ونفوذه داخل أنطاكية ، لكى يستطيع أن يواجه ماتتعرض له إمارته الجديدة من أخطار من جانب المسلمين والبيزنطيين جميعاً . والواقع أن بوهيموند اتخذ من انطاكية مدينة حصينة لنفسه ، اجتمع داخلها النورمان مع أهلها من البيزنطيين والسريان حتى غدت دولة جديدة للنورمان فى الشرق. وبذلك يكون بوهيموند قد نجح فيما فشل فيه أبوه من قبل .

استيلاء الصليبيين على بيت المقدس :

بعد أن استولى بوهيموند على أنطاكية واستطاع أن يفرض زعامته عليها، ويبعد عنها ريموند الرابع الصنجيلى اضطر ريموند الرابع إلى الخروج منها معلنا عزمه على السير إلى بيت المقدس ، والواقع أن ريموند أصبح فى تلك الفترة هو زعيم الصليبيين الذى لاينافسه أى أمير صليبى آخر، بعد أن رفض بوهيموند الاشتراك مع الصليبيين فى الزحف إلى بيت المقدس وبعد أن ظل بلدوين البولونى مقيما فى الرها.

وقد اشترك فى الزحف إلى بيت المقدس مع ريموند الرابع كلا من تنكرد النورماني وجود فرى دى بوايون وروبرت دى فلاندزر وروبرت النورماندى . وأثناء الزحف إلى بيت المقدس قام الصليبيون بالإغارة على بعض المدن التى مروا بها خاصة تلك التى كانت تابعة لطرابلس ، ولكن دون الحصول منها بطائل.

ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور البيزنطى أرسل إلى الزعماء الصليبيين أثناء زحفهم إلى بيت المقدس بضرورة انتظاره حتى يحضر إليهم بنفسه ويشاركهم فتح بيت المقدس ، والمعروف أنه كانت بين الأمير ريموند الرابع وبين الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين صلات طيبة، مما جعل ريموند الرابع يرحب بما عرضه الإمبراطور الكسيوس وفضلوا الزحف دون إبطاء خاصة وان الإمبراطور البيزنطى كثيرا ماوعد بتقديم المساعدة للصليبيين وخلف وعده وفى نفس الوقت حتى لايضيعوا فرصة

الاستيلاء على بيت المقدس ويتيحوا الفرصة للفاطميين لتحصين بيت المقدس والصمود فى وجه الصليبيين.

وأخيرا وافق جميع الأمراء الصليبيين على الزحف على بيت المقدس مباشرة .

وقد سبق لنا أن اشرنا إلى أن الأفضل بن بدر الجمالى الوزير الفاطمى بادر بإرسال جيشا للاستيلاء على بيت المقدس من يد السلاجقة عقب وصول الصليبيين إلى أنطاكية وتحالفه معهم وفق الشروط التى عرضها على أمراء الصليبيين بأنطاكية ظنا منه أن الصليبيين سيتركون له بيت المقدس ويقنعوا بالاستيلاء على أنطاكية ، وهذا يدل دلالة واضحة على قصر نظر السياسة الفاطمية التى لم تدرك أن الحملات الصليبية لم تخرج أصلا من أوربا إلا لتحقق هدف البابوية فى الاستيلاء على بيت المقدس وبنفس سذاجة السياسة الفاطمية بادر الأفضل وأرسل يخبر زعماء الحملة الصليبية المتجهة صوب بيت المقدس يذكرها بالاتفاق السابق بينه وبينهم ويخبرهم بأنهم إذا كانوا يريدون الحج وزيارة القدس فإنه سيتيح لهم هذه الفرصة لكن أمراء الحملة الصليبية الزاحفة إلى بيت المقدس ردوا على الأفضل بقولهم أنهم سيدخلوا بيت المقدس دون مساعدته وإنما بمشيئة الله.

وفى شهر يونية عام ١٠٩٩م فرض الصليبيون الحصار على بيت المقدس ، التى كانت تحت حكم افتخار الدولة أحد القادة الفاطميين، وقام افتخار الدولة بحشد أسوار المدينة بالرجال والسلاح وطرد من بها من

المسيحيين حتى لايتواطئوا مع أخوانهم فى الدين الصليبيين ، مما أدى إلى إطالة مدة الحصار الصليبى لبيت المقدس ولم تلبث أن جاءت الامدادات للصليبيين المحاصرين لبيت المقدس من قبل الغرب الأوربى على ظهر سفن جنوبه، مما ساعد على تشديد الحصار المضروب على بيت المقدس.

وأخيرا بعد جهد شاق وأعصاب متوترة استطاع الصليبيون اقتحام بيت المقدس فى منتصف شهر يولية عام ١٠٩٩م ودخلوا المسجد الاقصى وهم على ظهور جيادهم وذبحوا من احتمى به المسلمين.

وعلى هذا النحو استولى الصليبيون على بيت المقدس

تأسيس الصليبيين لإماره طرابلس :

وتعتبر إمارة طرابلس هى آخر إمارة صليبية يؤسسها الصليبيون بالشام ويعود تأسيسها إلى الأمير ريموند الرابع الصنجيلى الذى فشل فى الحصول على أنطاكية أو على احدى المدن الساحلية أثناء سيره صحبة الحملة الصليبية إلى بيت المقدس أو على حكم بيت المقدس.

وبعد أن استقل جود فرى بحكم بيت المقدس اتجه ريموند إلى الشمال حيث أخذ فى إثارة المتاعب فى وجه بوهيموند النورمانى صاحب أنطاكية من جهة وفىمحاولة للوصول علىحكم أية مدينة فى شمال الشام من جهة أخرى.

وأخيرا استطاع ريموند الاستيلاء على انطرطوس عام ١١٠٢ م وجبيل عام ١١٠٣ م من صاحب طرابلس القاضى فخر الملك أبو على بن عمار ثم حاول الاستيلاء على طرابلس لكنه فشل فى ذلك.

وباستيلاء ريموند على كل من انطرطوس وجبيل وضع بذلك أساس إمارة طرابلس التى ستكتمل فيما بعد فلم يلبث الأمير برترام ابن ريموند الرابع أن استولى على طرابلس عام ١١٠٩م فى حين كانت كلا من انطرطوس وجبيل تحت حكم جورد أن ابن خالة ريموند الرابع وهو الأمير الذى خلف ريموند فى حكم هاتين المدينتين وفى استكمال سياسته من بعده، غير أن وليم جورزان لم يلبث أن قتل مما أتاح الفرصة لبرترام بن ريموند فى ضم كل من انطرطوس وجبيل إلى طرابلس وبذلك اكتملت إمارة- طرابلس وتوحدت تحت سيادته.

الحملة الصليبية الثانية :

وإذا كان الصليبيون قد نجحوا فى تحقيق أهدافهم وأقاموا عدة كيانات صليبية لهم فى الشرق إبان الحملة الصليبية الأولى، نتيجة الانقسام الذى شهدته بلاد الشام والشرق الإسلامى، فإن قيام زنكى بحركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبين ، وإسقاطه لإمارة الرها عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م ، أدى إلى إثارة البابويه فى غرب أوربا ودعوا لها من جديد للقيام بحملة صليبية جديدة لاستعادة الرها وضرب الدولة الزنكية .

وكان رد الفعل هو تلك الحملة الصليبية المعروفة بالثانية والتى اشترك فيها لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا . وكان من الطبيعى أن تتجه هذه الحملة صوب الرها لاستردادها ثم القضاء على حلب مركز الخطر على الإمارات الصليبية . لكنها بدلا من هذا اتجهت

صوب بيت المقدس حيث أشار بلدوين الثالث على لويس أنه من الاصلح مهاجمة دمشق وذلك على الرغم من أن دمشق كانت حتى ذلك الحين هى الحليف الوحيد للصليبين .

وما استقر أمر تلك الحملة على منازلة دمشق حتى شرع متولى أمرها معين الدين أنر ، فى التأهب والاستعداد لحربهم وفى نفس الوقت كانت المكاتبات قد نفذت إلى الولاة بالاستصراخ والاستنجاد كما استنجد بأبنى زنكى غازى ونور الدين وبينما يحاصر الصليبيين دمشق إذ بالنجدات الإسلامية تتدفق عليها مما جعلها تتحول من الدفاع إلى الهجوم ، وزعزع من موقف الصليبيين أنهم أساءوا اختيار المكان فلم يكن به ماء كل هذا أدى إلى تخلخل موقفهم وأدى بالتالى إلى قيام الخلافات بينهم.

ويبدو أن معين الدين آنر كان متخوفا من نية الزنكيين – سيف الدين غازى ونور الدين– لذلك خشى من دخول قوتهما دمشق فأرسل إلى لويس يخوفه من قوات سيف الدين غازى ويخبره بأنه أى غازى " أن ملك دمشق لن يبق لكم معه مقام بالشام " وعرض عليهم بانياس فى مقابل الجلاء عن دمشق " ولقد سارع لويس وكونراد الثالث بقبول ذلك العرض ، ورفعوا الحصار عن دمشق ورحل كونراد إلى أوربا فى حين بقى لويس حتى تسلم بانياس ثم رجع إلى بلاده.

وبذلك انتهت الحملة الصليبية الثانية دون أن تحقق شيئا من أهدافها وهو القضاء على الزنكيين بحلب واستعادة الرها المفقودة بل أن اهم نتائجها

هى أنها ازالت ذلك الكابوس الذى كان يخيم على صدور المسلمين من تلك النجدات الصليبية الغربية ، فلم يعد المسلمون يخشون هذه الحملات بعد أن تحققوا من ضعفها هذا ماشجع نور الدين فيما بعد على مواصلة اغاراته على ممتلكات الصليبين وخاصة أنطاكية.

الحملة الصليبية الثالثة :

وبعد الانتصارات التى حققها صلاح الدين الأيوبى على الصليبين فى معركة حطين، واستعادته بيت المقدس من أيديهم ، وكان على البرتودى مورا Alberto de Mora كاردينال كنيسة لورنس Lourence بليكينا Lucina والذى اختير بابا خلفا لأوريان الثالث واتخذ اسم جريجورى الثامن عام ١١٨٧م ، إزاء هذا الموقف العصيب ، أن يعيد السلام إلى أوربا ، ويوجه الجيوش إلى الشرق من أجل استعادة بيت المقدس فسارع بعقد اتفاقية سلام مع الإمبراطور فردريك بربروسا ، لينهى الصراع الدائر بين البابوية والإمبراطورية ، كما أرسل عدة رسائل إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى نبذ الحروب الداخلية والاستعداد من أجل المشاركة فى حملة صليبية لاستعادة بيت المقدس من يد المسلمين.

غير أن الأقدار لم تمهل جريجورى الثامن ليرى نتائج جهوده السابقة فقد توفى بعد شهرين من تاريخ توليته كرسى البابوية (أكتوبر - ديسمبر ١١٨٧م)- وخلفه فى كرسى البابوية أسقف بالسترينا Palestrina باولوسكولارى Paole Scoleri الذى اتخذ اسم كليمنت الثالث (١١٨٧- ١١٩١م).

وكان على البابا الجديد الاستمرار فى تحقيق السلام بغرب أوربا، واستكمال مابدأه سلفه جريجورى الثامن فى الإعداد لحملة صليبية.

وبالفعل بدأ كليمنت الثالث دعوة كافة الأمراء المسيحيين الغربيين إلى الانضمام والوحدة من أجل انقاذ بيت المقدس ، ووضع أساس الوفاق بين البابوية والإمبراطورية وأصبحت قوة الإمبراطورية بمقتضى هذا الاتفاق راسخة الأقدام فى ايطاليا، كما عاد الباباوات إلى روما بعد أن كانوا يعيشون منذ وفاة البابا اسكندر الثالث عام ١١٨١م فى شمال ايطاليا.

وبدأ وكان الأمور قد استقرت للإمبراطور فردريك الأول بكل من ألمانيا وإيطاليا ولايخفى علينا أن البابوية كانت فى حاجة إلى قوة الإمبراطور فردريك الأول، ومايتمتع به من شهرة وشجاعة بالإضافة إلى شخصيته الصلبة القوية، وذلك من أجل المشاركة فى الحرب الصليبية المقبلة.

كذلك اشترك فى هذه الحملة بالإضافة إلى فردريك بربروسا ، كلا من رتشارد قلب الأسد ملك انجلترا، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا.

وإذا كان فردريك بربروسا قد فضل أن يسلك الطريق البرى فإن رتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس فضلاً اتخاذ الطريق البحرى.

ولم يكتب لفردريك بربروسا الوصول سالماً إلى الشرق حيث غرق فى أحد أنهار آسيا الصغرى ، وتشتت حملته ، بينما وصل رتشارد وفيليب أوغسطس إلى عكا واستطاعا الاستيلاء عليها من يد المسلمين.

غير أن فيليب أوغسطس آثر العودة إلى فرنسا لأهداف سياسية . أما رتشارد قلب الأسد ففضل البقاء بالشرق حتى يتحقق له استرداد بيت المقدس من يد صلاح الدين الأيوبى.

غير أن دفاع صلاح الدين المجيد عن بيت المقدس أعجز رتشارد عن الاستيلاء عليها ، كما أن الانقسامات التى حدثت فى صفوف الصليبيين أدت إلى قبول رتشارد لعقد صلح مع صلاح الدين ، وهو صلح الرملة عام ١١٩٢م ، وأهم شروطه :

١- أن يحتفظ المسيحيون بما افتتحوه من بلاد حتى يافا جنوباً .

٢- أن يكون للمسيحين الحق فى حج بيت المقدس .

٣- ألا يكون للمسيحيين قسيس بيت المقدس.

٤- أن يكون من حق المسيحيين والمسلمين عبور أراضى بعضهم البعض.

وبعد اتمام هذا الصلح عاد رتشارد قلب الأسد إلى أوربا. وبذلك انتهت الحملة الصليبية الثالثة دون أن تحقق أهداف البابوية فى استعادة بيت المقدس وضرب قوة صلاح الدين الأيوبى.

الحملة الصليبية الخامسة :

عاد رتشارد قلب الأسد إلى أوربا بعد فشل الحملة الصليبية الثالثة فى تحقيق أهدافها وهى استرداد بيت المقدس ، وضرب قوة صلاح الدين

الأيوبى، واكتفى بتوقيع صلح الرملة ، لكنه آمن خلال هذه الحملة أن الطريق إلى بيت المقدس عبر مصر ، وان استعادة بيت المقدس لن يتم إلا إذا تم القضاء أولاً على مركز قوة المسلمين فى القاهرة . ولذلك بدأت البابوية تدعو إلى توجيه الحملات العسكرية إلى مصر.

إن كان يؤخذ فى الاعتبار أن فكرة مهاجمة الصليبين لمصر، ليست بفكرة جديدة ، فهى قديمة ، إذ تشير المصادر التاريخية المختلفة إلى أن بلدوين الأول ملك مملكة بيت القدس الصليبية ، فكر فى مهاجمة مصر ، وربما يكون الذى دعاه إلى هذا التفكير هو ذلك الضعف الذى سيطر على الدولة الفاطمية أواخر أيامها كما أن فكرة التوسع والعدوان من الأفكار التى لازمت الصليبيين منذ البداية أى منذ وصولهم إلى بلاد الشام ، وإذا كان القدر لم يمهل بلدوين طويلا إذ توفى فى أثناء تلك الحملة التى قادها إلى مصر ، ولم تحقق الأقدار هدفه فى الدخول إلى القاهرة فإن خلفاءه من بعده حكام المملكة الصليبية ببلاد الشام ، حاولوا من جديد تحقيق الهدف القديم وهو ضرورة السيطرة على مصر.

وقد تزعم هذه الفكرة حنا دى برين ملك الصليبيين بعكا ، كما أن البابوية بالغرب باركت هذا التفكير وأيدته ، ومن ثم توجهت الحملات الصليبية بعد ذلك إلى مصر.

أدى فشل الحملة الصليبية الثالثة فى استرداد بيت المقدس من المسلمين إلى حالة من القلق فى غرب أوربا بوجه عام وعند البابوية بوجه

خاص. وزاد هذا القلق عندما انحرفت الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية وهى التى كان مفروضا أن تتجه ضد مصر بوصفها حجر الزاوية فى حركة المقاومة الإسلامية للصليبيين فى الشرق الأدنى.

وكان حنا دى برين (١٢١٠-١٢٢٥م) ملك الصليبيين فى عكا يحس بحرج موقف الصليبيين فى الشام وينادى بضرورة توجيه ضربة قاصمة إلى مصر تمكن الصليبيين بعدها من استرداد بيت المقدس.

لذلك دعا الملك حنا دى برين جموع الصليبيين الذين وفدوا إلى بلاد الشام عام ٦١٤هـ (١٢١٧م) تلبية للدعوة التى وجهها البابا انوسنت الثالث وتعهدها البابا هونريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٧م) من بعده ، للقيام بحملة صليبية على دلتا مصر ووجد الملك الصليبى تشجيعا كبيرا من

قبل صليبى الشام وقبرص بالإضافة إلى تشجيع البابا وملوك أوربا . وكان أن تم مشروع الحملة فوصلت جموع الصليبيين تحت قيادة حنا دى برين فى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول عام ٦١٥هـ (١٢١٨م) إلى شمال الدلتا ورست سفنهم أمام دمياط واستطاعوا بعد ثلاثة أشهر من تاريخ نزولهم على دمياط الاستيلاء على برج السلسلة فى الوقت الذى مرض الملك العادل - سلطان مصر - مرض الموت وتوفى بعد قليل ٦١٥هـ (٢١٨م) ، وقد حاول الملك الكامل محمد الذى خلف أباه الملك العادل فى حكم مصر، إقامة جسر يعوق به تقدم الصليبيين فى النيل ، ولكنه فشل فى ذلك واستطاع الصليبيون الوصول إلى موضع يقال له " بوره " يقابل منزلة العادلية حيث يقيم الملك

الكامل ، وبذلك أصبح فى وسع الصليبيين مهاجمة المعسكر الايوبى عن طريق البحر.

وعندما وصلت أنباء انتصارات الصليبيين هذه إلى الشام واوربا زاد عدد القادمين إلى دمياط من صليبى الشام كما وصلت الامدادات من أوربا وعلى رأسها المندوب البابوى الكاردينال بيلاجيوس ليكون قائدا لهذه الحملة.

وإزاء فشل قوات الملك الكامل فى وقف تقدم القوات الصليبية وتتابع قدوم وفود الصليبيين على دمياط عرض الملك الكامل على الصليبيين التنازل لهم عن بيت المقدس باستثناء حصن الكرك ووادى عربة فى مقابل جلائهم عن دمياط .

غير أن المندوب البابوى رفض هذا العرض السخى فى حين قبله الملك حنا دى برين ، لذلك تابع الصليبيون زحفهم حتى استطاعوا الاستيلاء على دمياط نفسها فى ٢٧شعبان عام ٦١٦هـ (١٢١٦م).

وتراءى لبيلا جيوس فى ذلك الوقت أن سقوط القاهرة اصبح مؤكدا فقرر الزحف عليها فى حين كرر الملك الكامل عرضه السخى على الصليبيين بتسليمهم بيت المقدس وعسقلان وطبرية وحيداً وجبله واللاذقية وجميع فتوح صلاح الدين بساحل الشام ماعدا الكرك.

غير أن المندوب البابوى بيلاجيوس رفض العرض وطلب مبلغا من المال عوضا عن تخريب القدس.

ويرجع رفض بيلاجيوس لعرض الكامل من أجل الصلح وماتبع هذا الرفض من غضب الملك حنا دى بريين ورحيله إلى عكا ، إلى ماتصوره بيلاجيوس وكذلك البابا هونريوس الثالث من سهولة اتمام غزو مصر والاستيلاء عليها ذلك أن البابا هونريوس الثالث علق أمالا كبيرة على الإمبراطور فردريك الثانى للقيام بحملة صليبية إلى الشرق والوفاء بقسمة الصليبى الذى أقسمه للبابا انوسنت الثالث عام ١٢١٥م (٦١٢هـ).

وكان أن طلب البابا هونريوس من فردريك إرسال حملة صليبية من صقلية فى صيف عام ١٢١٧م(٦١٤هـ) إلى مصر لمعاونة حملة حنادى برين ويبدو أن الامل المعقود على حملة الإمبراطور فردريك الثانى المنشودة ، كان هو الذى سيطر على تحركات بيلاجيوس فى تلك الفترة مما جعل الأخير يرفض شروط الصلح المعروضة عليه ويترك مصر، عسى أن تصل حملة الإمبراطور فردريك فتساعده فى اتمام الاستيلاء عليها.

وبعد أن تثبت الملك الكامل من نية الصليبيين فى الزحف على القاهرة أرسل إلى أخوا نه بالشام طالبا النجدة، كما جدد عرضه على الصليبيين بتسليمهم القدس ولكنهم رفضوا مشترطين خمسمائة ألف دينار لتعمير ماخرب من القدس بالإضافة إلى أخذ الكرك والشوبك.

ولم يلبث الصليبيون أن شرعوا فى الزحف تجاه القاهرة عن طريق النيل وكان ذلك فى وقت ارتفاع فيضان النيل وقسوة حرارة الشمس ، فانتهز

المسلمون فرصة فيضان النيل وقطعوا السدود مما أدى إلى أغراق أكثر الأراضى المحيطة بالصليبيين .

وعندما أحس الصليبيون بحرج موقفهم حاولوا العودة إلى دمياط غير أن الملك الكامل قد وضع على الممر الضيق الذى يربطهم بدمياط قوة حالت دون رجوعهم " وبذلك " لم يبق للصليبيين خلاص" وزاد من سوء حالهم أنهم " لم يصحبوا معهم مايقوتهم عدة أيام ظنا منهم أن العساكر الإسلامية لاتقوم لهم.

واضطرهم هذا الموقف إلى مراسلة الملك الكامل " يطلبون الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض".

وقبل الملك الكامل ذلك العرض فى حين عارضة اخواه المعظم عيسى والأشرف موسى " وأخيرا تم عقد هدنة بين الطرفين لمدة ثمانى

سنوات على أن يطلق كل فريق مالديه من الاسرى وان يؤخذ من الصليبيين رهائن حتى يتم تنفيذ الصلح.

وبذلك انتهت الحملة الصليبية الخامسه بالفشل ، ولم تحقق أهداف البابوية فى ضرب مصر.

الحملة الصليبية السادسة :

قاد هذه الحملة الإمبراطور فردريك الثانى إمبراطور الإمبراطورية الرومانيه المقدسة ، وهى ليست مثل الحملات السابقة ، فهى أقرب إلى نزهة

قام بها فردريك إلى الشرق ، وإن كان قد نجح فيما فشلت فيه الحملات الصليبية السابقة.

وتعود أسبابها إلى رغبة البابويه فى تحقيق نصر يمحو أثار فشل الحملة الصليبية الخامسة ، فأخذت وعداً من فردريك الثانى بالقيام بهذه الحمله. أما فردريك الثانى هذا فقد ارتبط برباط الصداقة مع الملك الكامل محمد سلطان الدولة الأيوبية فى مصر والشام ، لذلك آثر عدم الذهاب على رأس هذه الحملة ، مما دفع البابويه إلى إصدار قرار الحرمان على الإمبراطور فردريك الثانى.

وعندما نشب الصراع بين الكامل وأخيه المعظم عيسى صاحب دمشق، لذلك أرسل الكامل إلى صديقه فردريك للحضور إلى المشرق ليتسلم بيت المقدس نكاية فى أخيه المعظم عيسى ، لذلك لبى فردريك دعوة الكامل له، وفى نفس الوقت ليزيح عن نفسه قرار الحرمان الذى أصدره ضده البابا.

وقام فردريك الثانى على رأس حرسه الخاص الذى لايتعدى ستمائه فارس بهذه الحملة التى هى أقرب إلى النزهه منها إلى حملة عسكريه ، وقد انتهت باستلامه بيت المقدس وفق اتفاقية يافا عام ١٢٢٩م ، وهو الأمر الذى فشلت فى تحقيقه الحملات العسكريه الكبيره.

غير أن البابوية رفضت الاعتراف بما حققه فردريك من نجاح ، ورفضت استعادة بيت المقدس إلا كاملاً وعن طريق الحرب، لذلك أخذ البابا

يدعو من جديد لقيام حملة صليبية اخرى لاستعادة بيت المقدس وضرب مصر.

الحملة الصليبية السابعة :

نجحت البابويه فى إثارة الرأى العام فى أوربا للقيام بحملة صليبية جديدة ضد مصر، واستعد الملك لويس التاسع ملك فرنسا للخروج على رأس تلك الحملة المنشوده. وتقرر أن تكون وجهة هذه الحملة ميناء دمياط المصرى.

واستطاع لويس التاسع تحقيق عدة انتصارات سريعه ، حيث تمكن من الاستيلاء على دمياط بدون مقاومه، وأعقب ذلك وفاة سلطان مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فحاول لويس انتهاز هذه الفرصة ومهاجمة معسكر المسلمين فى فارسكور ثم الزحف على القاهرة.

فى هذا الوقت عهد أمراء مصر بالحكم إلى تورانشاه بن الصالح أيوب ، واستطاع تورانشاه بمساعدة أمراء المماليك انزال الهزيمه بجيش لويس، ووقع لويس نفسه فى أسر المسلمين حيث تم أسره فى دار فخر الدين ابراهيم بن لقمان بالمنصوره . ووقع معظم جنده بين أسير وقتيل، وبذلك فشلت الحملة الصليبية السابعة فى تحقيق أهدافها.

الدولة البيزنطية والغرب الأوربى

بسقوط الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام ٤٧٦م ، وإستيلاء الجرمان على معظم أراضى القسم الغربى من الإمبراطورية الرومانيه ، أخذ أباطرة القسم الشرقى والذين قدر لدولتهم الاستمرار ، أخذوا يدعون أحقيتهم فى القسم الغربى، على اعتبار أن كلا القسمين الشرقى والغربى من أقاليم يمثلان الامتداد الطبيعى للامبراطورية الرومانيه ، وأن الجرمان لهم حق شرعى فى حكم هذه الاقاليم.

ومن هذا المنطلق قام الإمبراطور جستنيان بحروبه الطويله من أجل استعادة الأراضى التى استولى عليها الجرمان فى كل من إيطاليا وشمال افريقيه وأسبانيا، واعتبر جستنيان نفسه امبراطوراً رومانياً.

وإذا كان الإمبراطور هرقل لظروف سياسية جستنيان رفض الاستمرار فى سياسة جستنيان الراميه إلى الاهتمام بالقسم الغربى ، وعمل على الاهتمام بالقسم الشرقى فقط واعتبر نفسه حاكماً شرقياً . غير أن الأباطرة الذين خلفوا هرقل لم يهملوا الاقاليم الغربية على الرغم من تقلص ممتلكات الدولة البيزنطية فى غرب أوربا ، وأصبحت فقط تشتمل على بعض الأراضى فى إيطاليا وشمال افريقية ، فقد اهتم بها أباطرة الدولة البيزنطية اهتماماً كبيراً ، فهذا هو الإمبراطور قنسطانز (٦٤١- ٦٦٨م) الذى اتخذ من سيراكوز مقراً له يتواجد بها فى الأوقات التى يخلو فيها القسم الشرقى خلالها

من المشاكل ، ليكون قريباً من ممتلكات الإمبراطورية الشرقية بالغرب الأوربى.

وسار معظم أباطرة القسم الشرقى على سياسة عدم التفريط فى ممتلكات الإمبراطورية فى الغرب، خاصة بعد خروج شمال افريقية من ايديهم ودخولها فى حوزة الدولة الإسلامية ، وإنسياب اللومباردیون فى الأجزاء الشماليه من إيطاليا واستيلائهم على رافنا عام ٧٥١م ، حيث لم يبق للدولة البيزنطية سوى ممتلكاتها بجنوب ايطاليا.

وظهر اهتمام الدولة البيزنطية بالغرب الأوربى ، وحقيقة مايجول بخاطرهم من دعواهم فى أحقيتهم بحكم الأقاليم الغربيه ، عندما أعلنت البابويه عن قيام امبراطورية شارلمان ، والذى يمثل إحياءً للامبراطورية الرومانية الغربية ، مما أفقد اباطره القسم الشرقى صوابهم فلم يعترفوا بامبراطورية شارلمان إلا بعد مضى اثنى عشر سنه.

ولم تكن علاقة الدولة البيزنطية بغرب أوربا علاقة طيبة ، وانما اتسمت طوال تاريخها بالعداء ، حتى فى الفترات التى شهدت تقرب البيزنطيين لملوك غرب أوربا وللبابوية ، فقد كان الحذر والشك يخيم على هذه العلاقه.

والمعروف أن الخلاف المذهبى بين الدولة البيزنطية والغرب الأوربى ساعد بصفه أساسيه على وجود هذا العداء ، وفشلت الجهود التى

بذلها بعض أباطرة الدولة البيزنطية فى التقريب من هذا الاختلاف ، وانما عملت على إتساع الفجوة بين الشرق والغرب.

وقد شهدت الفترة من أواخر القرن العاشر الميلادى وحتى نهاية الدولة البيزنطية ، اضطراب فى العلاقة بين بيزنطه والغرب الأوربى ، وخاصة الامبراطوريه الرومانيه المقدسة التى كان لها أطماع فى إيطاليا ، حيث دارصراع بينهما على بعض الاملاك الموجوده بإيطاليا.

وقد تركزت العلاقه بين الدولة البيزنطية وغرب أوربا فى القرن العاشر فى ذلك الصراع الذى دب بين أوتو الأول إمبراطور المانيا وبين اباطرة الدولة البيزنطية ، خاصة بعد أن حصل أوتو على التاج الامبراطورى وعمل بكل جهده لضم إيطاليا إليه ، ونجح فعلاً فى فرض سيطرته على روما واعترف بسياده الأمراء اللومبارديين بجنوب إيطاليا وهما أميرا كابوا وبنفنتو، هذا بالطبع بالإضافة إلى أملاك الإمبراطورية الرومانية فى شمال إيطاليا ، ولم يبق خارجاً عن يده سوى تلك الأملاك التى تسيطر عليها الدولة البيزنطية فى جنوب إيطاليا ، وقد حاول أوتو عن طريق القوه الاستيلاء عليها ، غير أن هذه الهجمات لم تكلل بالنجاح ، فجنح إلى استخدام الطرق الدبلوماسية ، وأرسل مبعوثاً من قبله هو ليتوبراند عام ٩٦٨م إلى الإمبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣-٩٦٩م) لعرض مشروع زواج ابن أوتو الأول من إحدى أميرات البيت البيزنطى على أن يكون صداقها تنازل الامبراطوريه البيزنطية عن

أملاكها فى جنوب إيطاليا للامبراطورية الرومانية المقدسة ، وأن يتم التحالف بين الدولتين .

غير أن هذا المشروع لم يكلل بالنجاح حيث رفض الإمبراطور البيزنطى هذا المشروع ، وآنف من أن يتم هذا الزواج . ولم يكتف نقفور بهذا وانما طلب من أوتو ضرورة تسليم الممتلكات التى استولى عليها فى إيطاليا إليه بصفته الوريث الشرعى لها، حيث نظر اباطرة الدولة البيزنطية إلى اباطرة الإمبراطورية الرومانيه المقدسة على أنهم من سلالة الجرمان المتبربرون المغتصبون لاملاك الإمبراطورية فى الغرب.

وقد أدى هذا الموقف إلى أن يستخدم أوتو القوة لإجبار الدولة البيزنطية على تسليم هذه الممتلكات له ، وعمل أوتو على التحالف مع بعض الأمراء اللومبارديين فى إيطاليا مثل أمير كابوا وأمير بنفنتو ، وعلى الرغم من إحراز أوتو لبعض الإنتصارات فى جنوب إيطاليا ، إلا أن ذلك لم يؤثر على ملكيه بيزنطه لأراضيها فى جنوب إيطاليا .

ومن الجدير بالذكر أن العداء المذهبى كان وراء هذه الخلافات المذهبية ، فقد حرص نقفور على توطيد نفوذ الكنيسة الشرقيه فى جنوب إيطاليا نكاية فى البابوية ، وأصدر أوامره إلى البطريرك البيزنطى بجنوب إيطاليا بمنع تسرب شعائر الكنيسة الغربية إلى أبوليا وكالابريا والمعروف أن البابا صار يخاطب الإمبراطور البيزنطى على أنه إمبراطور اليونان ، بينما منح لقب إمبراطور الرومان لأوتو الأول .

وزاد من المشاكل التى حلت بالدولة البيزنطية فى جنوب إيطاليا أن المسلمين الذين استولوا على صقلية مالبثوا أن هاجموا شواطئ إيطاليا الجنوبيه مما فتح جبهة اخرى أمام البيزنطيين ، بالإضافة إلى أن المسلمين حاولوا دوماً الاستيلاء على ماتبقى فى يد البيزنطيين من قلاع داخل صقلية مثل قلعة طبرمين ومدينة رمطه وهى مدينة صغيره فى الجانب الشرقى من صقليه.

واستطاع المسلمون بعد حصار شديد الإستيلاء على طبرمين عام ٩٦٢م وفشلت جهود الدولة البيزنطيه فى الدفاع عنها ، ولم يعد فى يد البيزنطيين سوى مدينة رمطه التى تتمتع بحصن قوى ، وقد اعتمد البيزنطيون على حصانه رمطه واعتقدوا أنها بذلك تكون بعيدة عن يد المسلمين . لكن المسلمين بذلوا جهدهم من أجا انهاء الوجود البيزنطى تماماً من صقلية ، واستطاعوا الاستيلاء على رمطه فى ٢٣أغسطس من عام ٩٦٣م ، أى بعد سبعة ايام فقط من تتويج نقفور فوقاس امبراطوراً على بيزنطة . وفشلت الجهود البيزنطية بعد ذلك فى إنقاذ صقلية حيث ارسلوا اليها عام ٩٦٤م عدة حملات عسكرية بائت كلها بالفشل.

ولم يكتف المسلمون باستيلائهم على صقلية ، وانما انتهزوا فرصه الاضطرابات داخل الدولة البيزنطية ، ودأبوا على مهاجمة السواحل الإيطالية الجنوبية للنهب والسلب ، وكان على البيزنطيين صد هذه الهجمات ، والقيام بالرد عليها ، وهذا هو ماقام به نقفور حاكم كالابريا عام ٩٧٦م من قبل

الإمبراطور باسيل الثانى (٩٧٦-١٠٢٥م) من الإغارة على صقلية ، واستيلائه على مسينى ، مما دفع حاكم صقلية إلى الرد عليه ، والقيام بمطاردة البيزنطيين المقيمين بصقلية ، ومهاجمة املاك البيزنطيين بجنوب ايطاليا.

وبذلك دخلت الدولة البيزنطية فى صراع مرير مع المسلمين بجنوب ايطاليا، فلم يهنأوا بفترات الهدوء والسلام والمعاهدات التى عقدوها مع الالمان بدخولهم فى صراع مع المسلمين.

وبعد أن تولى أوتو الثانى حكم المانيا ، أخذ يفكر من جديد (عام٩٨٠م) فى أمر جنوب ايطاليا ، مما فتح باب الصراع مرة اخرى مع البيزنطيين . لكن هذه المرة تزامن زحف جيش الامبراطوريه الرومانيه المقدسة مع غزوات المسلمين المستمرة للأراضى البيزنطية بجنوب ايطاليا، مما أوقع الدولة البيزنطيه فى حرج شديد . وزاد من صعوبة موقف الدولة البيزنطية تلك المشاكل التى تعرضت لها القسطنطينية ذاتها مما أعجزهم عن صد تلك الهجمات.

وقد دفع هذا الوضع المتردى الذى أصبحت عليه الدولة البيزنطية ، إلى أن يلتمس سكان المناطق الجنوبية بإيطاليا الحمايه من أوتو الثانى ، الذى رأى هو الآخر أن المصلحه تحتم عليه القيام بطرد المسلمين من صقلية حتى يحافظ على جنوب ايطاليا .

ويبدو أن هذه الأخبار لم تلق قبولاً عند البيزنطيين الذين فضلوا وقوع جنوب إيطاليا فى يد المسلمين عن استيلاء الإمبراطور الغربى عليها وعلى صقلية ، وهذا يوضح مدى العداء الذى كنه البيزنطيون للإمبراطور الغربى.

وتنفيذا لدرء خطر الإمبراطورية الرومانية المقدسة وابعادها عن جنوب إيطاليا وصقلية ، قام الإمبراطور البيزنطى بعقد محالفة مع المسلمين بإفريقيه ضد أوتو الثانى.

غير أن أوتو الثانى الذى بات يحلم بضم جنوب إيطاليا وصقلية إليه لم يعبأ بهذا التحالف ، وعندما كان فى روما عام ٩٨١م اتخذ قراره بتوجيه جيوشه إلى جنوب إيطاليا وصقلية ، وبدأت بعد ذلك العمليات الحربية ، فأستطاع الاستيلاء على بارى عام ٩٨٢م وتارنتو التى دافع عنها المسلمين دفاع مستميت ، واستطاعوا انزال الهزيمة بالالمان ، بعد التهاب حماسهم الدينى عقب مقتل قائدهم المجاهد ابو القاسم ، ووقع عدد كبير من الالمان بين أسرى وقتلى ، ويقال أن أوتو الثانى نفسه نجا بأعجوبه من هذه المعركة ، حيث فر إلى روما .

وفى العام الثالث ٩٨٢م توفى أوتو الثانى دون أن يحقق أحلامه فى طرد المسلمين من صقلية وإستيلائه عليها وعلى جنوب إيطاليا ، وبذلك إستراحت الدولة البيزنطيه من خطره .

أستعادة الدولة البيزنطية سيطرتها على بعض ممتلكاتها فى إيطاليا، عقب هزيمة أوتو السابقة ، وأخذت فى أنتهاز أحوال المانيا والمسلمين لبسط نفوذها على تلك الأماكن وإعادة ترتيب أوضاعها الأدارية.

فقد دخلت المانيا فى فوضى بعد وفاة أوتو الثانى ، وذلك بسبب صغر سن الإمبراطور الجديد (أوتو الثالث) ، كما أن المسلمين بعد وفاة أميرهم المجاهد أبو القاسم توقفت هجماتهم على جنوب إيطاليا ، كل ذلك أتاح للبيزنطيين فرصة أعادة تنظيم الأدارة البيزنطيه فى جنوب إيطاليا وبسط نفوذهم على تلك الأماكن فأخضعوا كلا من ثغر أبوليا وثغر كالابريا لقائد واحد هو القطبان الذى اتخذ من بارى مركزاً له .

ونتيجة أحداث الشرق ، أهملت الدولة البيزنطيه أمر جنوب إيطاليا، مما أدى إلى إنتشار الفساد داخل هذه الأقاليم نتيجة قيام الحكام بإبتزاز أموال الأهالى وزيادة الأعباء الضريبية عليهم ، مما دفع أهالى جنوب إيطاليا إلى التمرد على الحكم البيزنطى ، وفى نفس الوقت أخذوا يستغيثون بالمسلمين من أجل انقاذهم من ذلك الحكم الجائر .

ولبى المسلمون نداء أهالى جنوب إيطاليا ، لذلك بدأت سلسلة جديدة من الهجمات الإسلامية على المدن البيزنطيه بجنوب إيطاليا ، وأستولى المسلمون على مدينة جيراس Gerace عام ٩٨٦م وكسنته Cosenza عام ٩٨٨ م، وكذلك هاجموا بارى عاصمة الأراضى البيزنطيه فى إيطاليا ، وكادت هذه المدينة تسقط فى يد المسلمين عقب الحصار الذى فرضوه عليها

عام ١٠٠٤م لولا تدخل البنادقه الذين انقذوها من السقوط فى يد المسلمين ، كل ذلك والإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى مشغولاً عن شئون إيطاليا غارقاً فى مشاكل الشرق حيث كان البلغار يهددون القسطنطينية ذاتها.

أما المشكلة الكبرى التى تعرضت لها الدولة البيزنطية فى جنوب ايطاليا، فقد جاءت من قبل أهالى هذه البلاد، الذين تمردوا على الحكم البيزنطى فى مدينة بارى، وتزعم ثوره الأهالى أحد النبلاء ويسمى ميلو وهو ينتمى إلى أسره لومبارديه نبيله ، وتحالف مع صهره داتو ، وتعاهد الاثنان على تخليص بلادهم من الحكم البيزنطى.

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى أسماع الإمبراطور البيزنطى عين على بارى قطبان جديد وأمده بقوه كبيره ، مما دفع بميلو إلى التحالف مع البابا بندكت الثامن، الذى أشار على ميلو بأن يتحالف أيضا مع جماعات النورمان ، وتشير كثير من المصادر إلى أن هؤلاء النورمان التقى معهم ميلو بعد رجوعهم من رحلة الحج إلى بيت المقدس عام ١٠١٦م وعرض عليهم مساعدته فلبواطلبه . ومنذ ذلك الوقت أخذت جماعات النورمان تتوافد على جنوب إيطاليا مساندة لأهالى البلاد فى ثورتهم ضد الحكم البيزنطى.

لكن الأحداث لم تسر وفق مايشتهى ميلو ، حيث منى بهزيمه كبيره على يد القوات البيزنطيه عام ١٠١٨م، فر على أثرها من المعركة ، وتوفى بعد ذلك ، مما أدى إلى تفرق النورمان وبذلك استطاع البيزنطيون استعادة نفوذهم فى جنوب إيطاليا.

أما عن علاقة الامبراطوريه الرومانيه المقدسة بالدولة البيزنطية فى تلك الفترة ، فلم تحدث مشاحنات بين الطرفين ، وانما على العكس من ذلك تحسنت العلاقات بينهما ، وشجع ذلك على أن يحاول كونراد تحقيق حلم أجداده فى توحيد الإمبراطورية (شرقية وغربية) منتهزاً فرصة عدم وجود وريث ذكر للإمبراطور قسطنطين الثامن (١٠٢٥-١٠٢٨م) إمبراطور الدولة البيزنطية ، فأرسل فى بداية عام ١٠٢٨م سفاره من قبله ينشد فيها زواج ابنه من الأميره زوى ابنة قسطنطين الثامن ، لكن هذا المشروع لم يتحقق لسبب بسيط وهو أن الأميره زوى هذه كانت قد قاربت الخمسين من عمرها فى حين كان ابن كونراد طفلاً فى العاشره من عمره، لكن كونراد كان يقصد من وراء هذه الزيجه بطبيعة الحال تحقيق مصالحة السياسية.

ولم تلبث أن عادت الاضطرابات من جديد فى جنوب ايطاليا، حيث استعان الأهالى مرة اخرى بالنورمان ، خاصة بعد أن أحدق الخطر الإسلامى مرة أخرى بجنوب إيطاليا.

والواقع فإن النورمان كانوا ومنذ أن وطأت اقدامهم أرض ايطاليا عقب دعوة ميلو السابقه لهم ، قد أخذوا يتوافدون على ايطاليا واستطاعوا تحقيق عدة انتصارات لحسابهم الخاص، حيث استطاعوا تأسيس افريسا عام ١٠٢٩م بالقرب من نابلى ، وبعد تأسيس إمارة أفريسا مرحلة مهمة لمراحل الوجود النورمانى بصقلية وجنوب ايطاليا، ثم بسطوا نفوذهم على ملقى عام

١٠٤١م، ثم كان ظهور أحد ابناء تانكرد هوتفيل.وهو روبرت جويسكارد بإيطاليا عام ١٠٤٦م وتأسيسه اماره له فى أبوليا وكالابريا.

أما النصر الكبير الذى أحرزة النورمان فى إيطاليا فى تلك الفترة فيتمثل فى ذلك الوفاق الذى حدث بينهم وبين البابوية عام ١٠٥٩م ، حيث كانت البابويه فى حاجة لمن يقف إلى جوارها ومساندتها فى حركة الاصلاح التى تقوم بها . وبالفعل تم الاتفاق بين البابا نقولا الثانى وبين الاميرين النورمانيين روبرت جويسكارد دوق آبوليا وكالابريا ، ورتشارد كونت كابوا ، واعترف البابا بشرعية حكمهم فيما أنشأوه من امارات ، كما منح روبرت جويسكارد تقليداً بحكم أبوليا وكالبريا وصقلية ، على الرغم من أن صقلية كانت فى ذلك الوقت فى يد المسلمين ، إلا أن البابا اعتمد فى ذلك على أن جزائر البحر من بين الممتلكات البابوية ، وكى يُحفز روبرت على استخلاص هذه الجزيرة من يد المسلمين ، لذلك يعتبر البعض استيلاء النورمان فيما بعد على جزيرة صقلية جزء من مخطط الحروب الصليبية الذى أعدته البابويه . وفى المقابل تعهد الأمراء النورمان بمُساعدة البابوية ، وأن يؤدوا لها جزيه سنوية.

وعلى هذا النحو دخل فى جنوب إيطاليا عنصر جديد – هم النورمان – ساعد على تقليص النفوذ البيزنطى بجنوب إيطاليا تم زواله نهائياً فلم تلبث بارى أن سقطت فى يد النورمان عام ١٠٧١م. وبذلك انتهى الوجود

البيزنطى من جنوب إيطاليا ، ولم يعد هناك مايربط الدولة البيزنطية بغرب أوربا .

ومن ناحية أخرى ساعد الوجود النورمانى بجنوب إيطاليا على خروج جزيرة صقلية من يد المسلمين وانتقالها إلى يد النورمان انفسهم كما سيتضح ذلك فيما بعد.

ومن الجدير بالذكر فإن البابويه بتحالفها مع النورمان لم تجن من وراء ذلك مكاسب كثيره ، لكنها على العكس من ذلك جرت لها متاعب كثيرة.

فلم يلبث النورمان أن قاموا بمهاجمة املاك البابوية نفسها، مما دفع البابا جريجورى السابع إلى اصدار قرار الحرمان ضد روبرت جويسكارد وأنصاره عام ١٠٧٤م، ثم عاد بعد ذلك ليعلن فى مجمع روماه عام١٠٧٨م حرمان النورمان من الكنيسة.

لكن تأزم العلاقات بين البابا جريجورى السابع والإمبراطور هنرى الرابع ، وصدور قرار البابا بحرمان هنرى عام ١٠٨٠م وتخوف البابا من تحالف هنرى الرابع مع روبرت جويسكارد وتوجيه هذا التحالف ضد البابوية، جعل البابا جريجورى يتقرب مرة اخرى إلى روبرت جويسكارد ، ويرفع عنه قرار الحرمان ويتم التحالف بين البابوية والنورمان مرة اخرى. لكن مع ملاحظة أن السبب الرئيسى فى عودة الوفاق والتآلف بين النورمان والبابوية لايعود فقط إلى تخوف البابوية من تحالف النورمان مع هنرى الرابع وانما

يعود بالدرجة الأولى إلى رغبة جويسكارد نفسه فى عودة التآلف مع البابوية ، لأن روبرت جويسكارد وجد فى تحالفه مع البابوية فرصه كبيره لتحقيق آماله وأطماعه ، لأنه رأى بمساعدة ومباركة البابوية يستطيع التوسع على حساب ممتلكات الآخرين.

وتركزت أطماع روبرت جويسكارد القادمة فى الدولة البيزنطية نفسها، فقد راودته فكرة اعتلائه عرش الإمبراطورية البيزنطيية ، وشجعه على ذلك التدهور السياسى الذى لحق بالدولة البيزنطية، بالإضافة إلى عدم تمتعها فى ذلك الوقت بقوة عسكرية تمكنها من الدفاع عن نفسها عقب موقعه ما نزكرت عام ١٠٧١م، وكان رائده فى ذلك محاولة رسل بالليل النورمانى الأصل والذى كاد أن يعتلى عرش الدولة البيزنطية.

ويبدو أن فكرة روبرت جويسكارد فى اعتلائه عرش الدولة البيزنطية قد راودته قبل اتفاقه مع البابوية عام ١٠٨٠م، لذلك أراد أن يحقق هذا الحلم عن طريق السياسة والدبلوماسية ، فوافق على مشروع الزواج الذى عرضه الإمبراطور البيزنطى ميخائيل السابع (١٠٧١ ـ ١٠٧٨ م) والرامى إلى زواج ابن ميخائيل من ابنة روبرت جويسكارد ، على الرغم من أن روبرت قد سبق له رفض مثل هذا المشروع فى السابق، أما الأن فقد وافق عليه من منطلق رغبته فى اعتلاء عرش الدولة البيزنطية ، حيث أعتقد أنه بهذا الزواج سوف يحدث تقارب بينه وبين البيزنطيين .

غير أن الأمور لم تسر وفق ما يشتهى روبرت جويسكارد فى تحقيق أعتلائه عرش الدولة البيزنطية بطرق دبلوماسية ، لذلك أثر عقد تحالف مع البابوية لكى تبارك له غزو أراضى الدولة البيزنطيه . وبالفعل تم عقد هذا التحالف عام ١٠٨٠م وأخذ روبرت فى التجهيز لحملة على الدولة البيزنطيه ، إلا أن تولية الإمبراطور الكسيوس كومنين حكم الدولة البيزنطيه عام ١٠٨١م أدى إلى حدوث متغيرات كثيرة فى التاريخ البيزنطى .حيث لم تفلح جهود روبرت جويسكارد فى غزو الدولة البيزنطيه خاصة بعد أن عمل الكسيوس كومنين على التحالف مع مدينة البندقيه التى خشيت من سيطرة النورمان على البحر الادرياتيكى خاصة بعد نجاحهم فى الاستيلاء على بعض الموانى هناك، غير أن الفتن التى حدثت بإيطاليا عجلت بعوده روبرت جويسكارد اليها، ثم وفاته بعد ذلك فريسة انتشار الوباء بالقوات النورمانية عام ١٠٨٥م.

ومن بين الأحداث التى تركت أثراً كبيراً فى علاقه الدولة البيزنطيه والغرب الأوربى ما حدث من قطيعه كبرى بين الكينستين الشرقيه والغربيه عام ١٠٥٤م.

وتعود أسباب هذه القطيعة إلى الخلاف الذى حدث بين البابوية التى رأت أن تنشر النفوذ البابوى فى الأراضى البيزنطية بجنوب إيطاليا وتأكيد فكرة السمو البابوى ، غير أن الكنيسة البيزنطية (اليونانيه) رفضت هذه الأفكار ، مما دفع البابا ليو التاسع (١٠٤٨-١٠٥٤م) إلى إرسال وفداً إلى القسطنطينية برئاسة الكاردنيال همبرت Humbert ليشرح وجهة نظر البابوية لبطريرك القسطنطينية كيرولاريوس Cerularius.

غير أن هذه المقابلة امتدت إلى نزاع وخلاف شديدين بين همبرت وكيرولاريوس مما دفع الأول إلى إنزال قرار الحرمان على كنيسه القديسة صوفيا وكيرولاريوس جميعاً ، فرد عليه كيرولاريوس بإصدار قرار الحرمان ضد همبرت وبقية أفراد الوفد البابوى.

وبذلك أخذت القطيعه مجراها بين الكنيسه الشرقية والكنيسة الغربية ، وهى التى اطلق عليها اسم القطيعة الكبرى.

وقد أدت هذه القطيعة إلى حرمان الدولة البيزنطية من مساعدات الغرب الأوربى لفتره طويله من الزمن، استمرت حتى تهديد الأتراك السلاجقه لاملاك الدولة البيزنطية، وماتبع من ذلك هزيمة البيزنطيين امامهم فى معركه مانزكرت عام ١٠٧١م، ثم المحاولات التى بذلها اباطرة الدولة البيزنطية من أجل استعادة العلاقات الطيبة مع غرب أوربا خاصة البابويه.

أسبانيا فى العصور الوسطى

تجمعت عدة عوامل ساعدت على نجاح المسلمين فى الوصول إلى حكم أسبانيا وتحقيق الانتصار على قوة القوط الغربيين الذين سبق لهم الاستيلاء على أسبانيا. وعلى الرغم من رغبة الإمبراطور جستنيان فى استعادة أسبانيا من يد القوط الغربيين ، إلا أنه لم ينجح فى ضرب قوة القوط نهائياً ، واكتفى بإستعادة بعض المدن الجنوبيه مثل أشبيليه ومالقه وقرطاجنه وغيرهم.

أما القوط الغربيين فقد تحصنوا فى الجهات الشماليه ، ويبدو أن ظروف جستنيان فى تلك الفترة جعلته يكتفى بهذا النجاح وأمر بعوده قواته إلى القسطنطينية ، بينما استطاع القوط بعد ذلك استعادة هذه الأقاليم ، واستمرت بها حتى حلول المسلمين .

واستطاع المسلمون الضرب على يد القوط وفتح أسبانيا كلها ماعدا بعض المناطق الصخريه الواقعه فى الشمال الغربى من أسبانيا التى انسحب اليها بقايا القوط. ومن الأخطاء التى وقع فيها المسلمون تركهم هذه المناطق فى يد القوط ، فقد استطاع القوط أن يتجمعوا بها، ويتخذونها نواة لحركة استعادة أسبانيا من يد المسلمين.

ولم يتخل القوط عن فكرة استعادة اسبانيا من يد المسلمين طيلة الحكم الإسلامى لأسبانيا حتىاستطاعوا بعد فتره طويلة من الزمن تحقيق هذا الهدف. ومن البدايه تجب الاشاره إلى أن الصراع السياسى والعسكرى بين

القوى الإسلامية فى أسبانيا كان العامل الأساسى فى إنهاء الوجود الإسلامى فى اسبانيا.

ولم يأبه المسلمون بأسبانيا - فى بدايه حكمهم - للتحرشات الداخليه حيث كانت قوة هذه المعارضة أضعف بكثير من أن تؤثر فى قوة الفاتحين الجدد، فلم تظهر قوة المعارضة الأسبانية إلا بعد مضى فترة من الزمن استطاعوا خلالها تقوية تجمعاتهم فى المناطق الشمالية.

أما فى الفتره الأولى من تاريخ المسلمين بالأندلس ، فقد واجههم عدو آخر تمثل فى دولة الفرنجة بغاليا، هذه الدولة الفتيه التى أحست بخطر المسلمين على ممتلكاتها، بعد أن أخذ المسلمون فى التوغل داخل الأراضى الفرنسية ، فجهز شارل مارتل جيشاً ودخل فى معركه مع المسلمين انتهت بهزيمه الجيوش الإسلامية عام ٧٣٢م هزيمه ساحقه فى معركه بواتييه المشهوره وقتل قائد الجيش الإسلامى عبد الرحمن الغافقى فى هذه المعركه.

وبعد أن استطاع الأمير عبد الرحمن الأول تأسيس دولة له فى الأندلس (٧٥٦-٨٨٧م) دخل فى صراع مع بعض القوى الإسلامية المناوئه له فى شمال أسبانيا وهم سليمان بن يقظان الاعرابى ، والحسين بن يحى الأنصارىحكام برشلونه وسرقسطه الذين تخوفوا من قوة عبد الرحمن ، وخشوا من فقدان نفوذهم فى البلاد خاصة بعد أن وجه إليهم عبد الرحمن الأول جيشاً لتأديبهم بقيادة ثعلبه بن عُبيد الجزامى ، لكن هذا الجيش لم يحقق انتصاراً عليهم، وانما على العكس من ذلك وقع ثعلبه فى ايديهم.

ولم يكن فى مقدور هؤلاء المتمردين المقدره على الوقوف فى وجه عبد الرحمن الأول على طول الخط ، وخشوا من إنتقامهم لما حل بجيش ثعلبه ، لذلك اتصلوا بشارلمان ملك الفرنجه (٧٦٨-٨١٤م) لمساندتهم والوقوف إلى جانبهم ضد عبد الرحمن الأول، وليؤكدوا له صدق نيتهم فى مؤازرته والوقوف جميعاً ضد عبد الرحمن الأول أرسلوا إليه أسيرهم ثعلبه الجزامى.

ولم يكن شارلمان - الذى ورث عن جده سياسة العداء مع المسلمين بأسبانيا- فى حاجه لمن يثير حماسه ضد الدولة الإسلامية بأسبانيا ، فاتجه بجيوشه صوب الأندلس مخترقاً جبال البرت ، حيث توجه أولاً إلى سرقسطه التى كانت لحليفه الحسين بن حيى الانصارى ، وأثناء الطريق مر بمدينة بنبلوته Panplona عاصمة نافار من بلاد البشكنس - فخربها ، ثم تابع سيره حتى وصل سرقسطه الذى خشى أميرها الأنصارى من استيلاء شارلمان عليها، فامتنع من تسليمها إليه ، وقاوم الحصار الذى فرضه عليه شارلمان.

ولما طال حصار شارلمان لسرقسطه ، وحدثت عدة اضطربات بدولة شارلمان، كما أقلقته تلك الاضطرابات التى أثارها السكسون ، أثر شارلمان العوده إلى بلاده ، وهو فى غيظ شديد لما حدث له وعدم تحقيق رغبته فى ضرب الدوة الإسلامية بأسبانيا بمساعده أعوانه من داخل أسبانيا ، صب جام غضبه على سليمان بن يقظان الأعرابى الذى كان مرافقاً له ، وألقى القبض عليه ، وأخذه أسيراً معه أثناء عودته إلى فرنسا. كذلك أثناء عودته أحدث

رجاله تخريباً آخراً بمدينة بنبلوبه مما أثار البشكنس ضده وهم الذين شجعهم ابناء سليمان بن يقظان الاعرابى الذين نقمواعلى شارلمان هم كذلك لأسره والدهم، واتفق أبناء الأعرابى مع البشكنس على مهاجمة مؤخرة جيش شارلمان المليئه بالغنائم والأسرى.

وبالفعل أثناء عبور جيش شارلمان لممرات الجبال فى المنطقه المعروفه بالروسنفال Roncesvalles (عام ٧٧٨م) هاجم البشكنس والمسلمون مؤخرة جيش شارلمان ، وأبادوها عن آخرها وقتل فى هذه المعركة القائد رولان الذى نسجت حوله ملحمه رولان المشهوره التى مجدت الفروسيه الأوربية وبطولة شارلمان وتضحية الأمراء والفرسان من أجل قادتهم ، واستطاع أبناء الاعرابى فك أسر والدهم.

وبذلك ثأر المسلمون لما حل بهم ببواتيه على يد شارل مارتل. وقد حاول البعض الربط بين هذه الموقعه وبين عبد الرحمن الأول ، فأشاروا إلى أنها كانت بتدبير منه ، كما حاول البعض الآخر الربط بين إغارة شارلمان على الأندلس وبين الدولة العباسية ، فأشاروا إلى أن شارلمان قام بمهاجمة الأندلس بإيعاز من خلفاء الدولة العباسية ببغداد ، لكن معظم هذه الآراء مجرد تحليل سياسى لما أحاط بهذه المعركة من ظروف وملابسات ولم يؤيدها أحد من المصادر المعاصره.

ومن الجدير بالذكر فإن شارلمان لم يفكر بعد ذلك فى معاداة عبد الرحمن الأول ، وعقدت بين الرجلين معاهده سلام، وقد أشار إلى ذلك

المقرى بقوله : " وخاطب عبد الرحمن قارله - شارلمان - ملك الافرنج بعد أن تمرس به مده ، فأصابه صلب المكسر ، فمال معه إلى المداراه ، ودعاه إلى المصاهره والسلم ، فأجابه للسلم ولم تتم المصاهره ".

ولكن أهم نتائج هذه الموقعه هى كما سبقت الاشاره انتقام لما حل بالجيوش الإسلامية فى بواتييه ، كما أثارت الحماس الدينى فى الغرب الأوروبى خاصة بعد استغلال ملحمة رولان التى وصلت إلى درجة الأسطورة ، وأصبح رولان رمزاً من رموز التضحيه والاستشهاد فى سبيل سيده والدين . ومن نتائج هذه الموقعة إنعدام الخطر الذى كانت تواجهه الدولة الإسلامية بأسبانيا من جهة غاليا خاصة بعد التفكك الذى أصاب الامبراطوريه الكارولنجيه عقب وفاة شارلمان.

ومن ناحية أخرى فإن الفتن الداخليه التى أثارها الحكام المسلمين فى بعض المناطق الشماليه من أسبانيا ، أصبحت علامه فى تاريخ الأندلس، فلم يخل تاريخها الطويل من هذه الفتن ، مما أدى إلى زعزعة الأحوال السياسية بالأندلس ، وزاد من خطورة هذه الفتن تحالف قادتها مع أعداء الدولة الإسلامية من خارج الأندلس ، أو تحالفهم مع الأسبان الناقمين على وجود المسلمين بأسبانيا.

والواقع أن هذه الفئه الأخيره ، وأقصد بهم الاسبان الناقمين على وجود المسلمين بأسبانيا، وهم الذين كونوا عدة تجمعات فى شمال أسبانيا ناصبت الحكم الإسلامى العداء مع بداية الوجود الإسلامى بأسبانيا. وقد لعبت

مملكة أستورياس – أستورقه – أوليون فيما بعد ، المجاوره لجليقه وهى اكبر هذه التجمعات وأخطرها ، لعبت الدور الأول فى سلسلة الهجمات التى شنها الأسبان على المسلمين بالأندلس.

ومن الجدير بالذكر فإن الذى ساعد على بقاء واستمرار هذه التجمعات الأسبانيه هو وجودها فى منطقه وعره صعبة الوصول اليها حيث كانت ذات مسالك وطرق وعره ، مما جعل أمر الوصول اليها أمراً صعباً. وقد اشتهر من هذه التجمعات مكان يعرف باسم الصخره التى تعرف أيضا بكهف أونكا أو صخره بلاى نسبة إلى اتخاذها حصناً للزعيم القوطى بلاى . وبعد وفاة بلاى عام ٧٣٧م ورثه ابنه فافيله الذى توفى دون ولد يرثه ، فإنتقل حكم هذه المنطقه التى عرفت بعد ذلك باسم أوستریاس، إلى بُطره الذى ورثه ابنه أوفنس (الفونسو الأول) المعروف بالكاثوليكى ، الذى ورثه بعد ذلك ابنه فرويله Fruela . وبالإضافة إلى أستورياس كان هناك مملكتان مسيحيتان لعبتا نفس الدور وهما قشتاله ونباره – نافار – ببلاد البشكنس .

أما استورياس فكان ملكها فرويله معاصراً لعبد الرحمن الأول ، وقد اتصف فرويله هذا بصفات القوه والذكاء بالإضافة إلى أطماعه التوسعيه ، غير أن قوة عبد الرحمن الأول وضعت حداً لأطماعه التوسعيه، حيث أرسل إليه جيشاً عام ٧٦٧م بقيادة أحد القادة المشهورين بالبسالة وهو المسمى بدر ، واستطاع بدراً هذا انزال الهزيمه بمملكه أوستریاس ، ساد بعدها الهدوء بين الجانبين فترة من الزمن .

وقد تجددت القلاقل التى اثارتها مملكه أستورياس مرة أخرى زمن عبد الرحمن الثانى (٨٢٢-٨٥٢م) ، كما ثار أيضا البشكنس ضده وتحالفوا مع حاكم تطيله Tudela القوطى ، غير أن عبد الرحمن الثانى استطاع السيطره على الموقف وإعادة الهدوء إلى هذه الأماكن .

أما أهم الحركات المناوئة التى حدثت زمن عبد الرحمن الثانى فتمثلت فى ذلك التيار المتطرف الذى قاده المستعربون Mozarabs ، وكذلك فى هجمات النورمان العسكرية التى شنها النورمان على الأندلس ، ثم نشوء العلاقات الدبلوماسية والسياسية بعد ذلك بين الطرفين.

وتعتبر ثورة المستعربون بداية المقاومه الأسبانية لحكم المسلمين بالأندلس. أما هؤلاء المستعربون فهم الأسبان المسيحيون الذين دخلوا فى الحكم الإسلامى ، وظللتهم الدولة الإسلامية بظلها ، وقد وصل عدد منهم إلى مراتب عاليه فى إداره الدولة الإسلامية بأسبانيا بفضل كفاءاتهم وإتقانهم للغه العربية ، وأخذ عدد منهم ينصهر داخل المجتمع الاندلسى ، لكن فى نفس الوقت ظل عدد منهم وخاصة من الرهبان والقساوسة يرقبون هذا الوضع بقلق شديد ، لتخوفهم من ذواب الأسبان فى المجتمع الأندلسى.

لذلك أثاروا بعض الفتن الدينيه من أجل إثاره الاضطرابات داخل الدولة الإسلامية ، وتحريك الرأى العام المسيحى ضد مسلمى أسبانيا ، لتكون بذلك بداية للحركه الصليبية داخل أوربا.

وقد تزعم هذه الحركة المتطرفه الراهب أيلوخيو الذى التف حوله مجموعه من المستعربين المتطرفين الذين أخذوا فى مهاجمة العقيدة الاسلاميه، ولما كان الشرع الإسلامى يقف موقفاً صلباً من المتهجمين على الشريعه الإسلامية حيث كانت عقوبة ذلك الاعدام ، فقد وقع عدد من هؤلاء المتطرفين فى هذا الاتهام وتم اعدامهم ، واعتبرهم أيلوخيو شهداء، وبدأ فى إثارة الراى العام فى أوربا ضد مسلمى أسبانيا ، وبالفعل زار أسبانيا وفداً من رهبان فرنسا حيث التقوا بقرطبه بزعيم هذه الحركه أيلوخيو ، ثم عادوا إلى فرنسا حاملين معهم رفات من تم اعدامه من المتطرفين والذين اعتبروا شهداء قديسيين ، وذلك لإثارة الرأى العام الأوربى ضد قرطبه وحكامها المسلمين.

أما الحدث الثانى الذى كانت له أثاره ونتائجه فكان تلك الاغارات التى شنها النورمان على سواحل بلاد الأندلس فى زمن عبد الرحمن الثانى. ومن الجدير بالذكر فإن المصادر الإسلامية قد أطلقت على هؤلاء النورمان اسم المجوس. وقد أغار النورمان على شواطئ الأندلس الغربيه والشرقيه، ووصلت بعضها إلى الداخل حيث أشبيليه التى أغاروا عليها عام ٨٤٤م. وقد بذل عبد الرحمن الثانى جهوداً كبيرة فى التصدى لهذه الهجمات ، والمعروف أن النورمان عرفوا فى التاريخ بحب المغامرة والشجاعة ، لذلك فشلت جهود عبد الرحمن الثانى العسكرية فى إتقاء شر هجماتهم.

وقد فكر عبد الرحمن الثانى فى وسيلة اخرى تساعده على وقف هجمات النورمان ، فلم يجد سوى الطريق السياسى . لذلك حاول عبد الرحمن الثانى إقامه علاقات طيبة معهم.

أرسل عبد الرحمن الثانى إلى النورمان سفاره على رأسها الشاعر المعروف يحى الغزال ، الذى وصل إلى البلاط النورمانى عام ٨٤٥م ، وبالطبع كان هدف هذه السفاره إقامة علاقات طيبة بين الطرفين ، ويبدو أن الغرض من هذه السفارة لم يتحقق فقد تكررت بعد ذلك هجمات النورمان على سواحل بلاد الأندلس الإسلامية.

وإذا كان عبد الرحمن الثانى قد فشل فى إقامة علاقات طيبة مع النورمان لكف يدهم عن مهاجمة شواطئ بلاده، فإن هذا الفشل دفعه إلى العمل سريعاً نحو إنشاء بحريه قويه يكون فى استطاعتها صد الهجمات النورمانية البحرية ، خاصة ونحن نعرف تماماً أن النورمان يتمتعون ببحريه قويه ، وبالفعل استطاع عبد الرحمن الثانى إقامه بحريه إسلاميه قويه عملت على الزود عن شواطئ الاندلس. ومن ناحية اخرى فقد أقام عبد الرحمن الثانى سوراً على مدينة اشبيليه التى عمل النورمان على مهاجمتها بصفة مستمرة ، وذلك لحمايتها من هجمات النورمان.

ثم تجددت المناوشات التى دأبت عليها مملكة استورياس – استورقه أوليون – زمن عبد الرحمن الثالث (٩١٢-٩٦١م) ، وقد تمتع عبد الرحمن الثالث بشخصيه قويه لاتختلف كثيراً عن شخصية جده الاكبر عبد الرحمن الأول، ويعود تاسيس الخلافه بالأندلس إلى عبد الرحمن الثالث هذا.

وفى زمن عبد الرحمن الثالث أيضا هاجم النورمان الأندلس مرات عديده ، وقد شجعتهم فى ذلك البابويه ، لكن قوة البحريه الإسلامية الاندلسية

استطاعت التصدى لهم ، لذلك لم يفز النورمان من وراء هذه الهجمات بطائل، كذلك قام على أمر الدولة الإسلامية بالأندلس فى تلك الفترة أحد القادة المشهورين وهو المنصور بن أبى عامر الذى تصدى لهجمات النورمان .

ومادمنا نتحدث عن العلاقات الخارجيه، خاصه علاقه بلاد الأندلس عصر عبد الرحمن الثالث بالقوى الأوربية ، فلابد من الاشاره إلى تلك العلاقه التى ربطت عبد الرحمن الثالث بالدولة البيزنطية ، فقد عاصر فتره استعادة الدولة البيزنطيه لقوتها زمن الأسره المقدونيه التى تمثل العصر الذهبى للدولة البيزنطيه، حيث اهتم بعض أباطرة هذه الدولة بالعلم والحضارة، ولما كانت بلاد الأندلس هى الأخرى مهتمه بالجانب الحضارى اهتماماً كبيراً ، لذلك ارتبط البلدان برباط وثيق من العلاقات الطيبة .

ولقد بدأت المراسلات تأخذ مجراها بين الأندلس عصر عبد الرحمن الثالث وبين الدولة البيزنطية، حيث أرسل الإمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٥-٩٥٩م) الشغوف بالعلم والتاريخ وفنون التصوير والنحت ، أرسل وفداً على أعلى مستوى إلى عبد الرحمن الثالث حاملاً هديه عبارة عن كتابين نفيسين أحدهما فى علم النبات والآخر فى التاريخ أيضا رسالة من الإمبراطور لإقامة العلاقات الطيبة بين البلدين.

ونتوقف قليلاً لنشير أنه لاعجب فى هديه الإمبراطور ، فهو رجل علم ، حيث قضى فتره طويله قبل أن يتولى عرش الامبراطوريه دارساً

وباعثاً ومؤلفاً ، ويمكن لنا أن نستشف من هذه الهديه أن الهدف الأساسى من هذه السفاره كان إقامة علاقات ثقافيه بين البلدين.

وقد ورد فى معظم المصادر الأندلسية أوصافاً لهذه الزياره،والاستقبال الحافل الذى أعده البلاط الاندلسى لهذا الوفد ، فيقول ابن الخطيب فى أعمال الاعلام : " فعقد له - اى للناصر - المعقد الشهير الذى لم يتهيأ مثله لملك قبله ، فدخل الرسول عليه وقد بهت لهول ماعاينه، ودفع إليه رساله مودعه فى ذهب كثير التصاوير ، وكان الكتاب فى رق سماوى اللون مكتوباً بالذهب وعليه طابع - المقصود هنا خاتم - ذهب ، فى أحد وجهيه صورة المسيح ، وعلى الآخر صورة الملك قسطنطين ." ، وبعد أن قضى هذا الوفد البيزنطى بعض الوقت فى عاصمة الخلافه الأمويه بالأندلس عاد إلى القسطنطينية وبصحبته سفير من قبل الناصر ، وكان هذا السفير هو هشام بن هزيل . ولاشك فى أن الناصر قد رد على هدية الإمبراطور البيزنطى بهديه مناسبه.

وإذا كانت الأمور قد تقلبت بحكام الأندلس وتدهورت السلطه المركزيه ، بسبب صغر سن ولاة العهد ، أو لضعف شخصياتهم ، فإن هذا الوضع اتاح الفرصة لظهور شخصيه أخرى حكمت باسم هؤلاء الخلفاء، وأقصد به محمد بن ابى عامر المعروف بالحاجب، الذى تلقب بالمنصور، والذى أخذ السلطه لنفسه وحكم باسم الخليفه هشام المؤيد بالله الذى بلغ من العمر احدى عشر ربيعاً. ولما توفى محمد بن ابى عامر حكم بعده ابنه

عبد الملك (المظفر) ثم من بعده ابنه الآخر عبد الرحمن، مما جعل كثير من المؤرخين يطلقون على هذه الفتره اسم الدولة العامريه ، حيث كانت لهم دولة داخل الدولة الأمويه بالاندلس.

وقد حمل المنصور من ابى عامر راية الجهاد ضد الحركات المناوئه التى قم بها الأسبان فى شمال الاندلس، حيث قاد حملة موفقه على مملكه ليون، ثم حملة أخرى على برشلونه ثم حملته الشهيره على قشتاله عام ٩٩٩م، وهذه الحملات أحرز فيها المنصور إنتصارات ساحقه على الأسبان، ولم تكن هذه الحملات الثلاث هى كل الحملات التى قام بها المنصور على الممالك المسيحية بشمال أسبانيا لكنها أشهرها فقط، حيث قام بما يقرب من خمسة وعشرين حملة على شمال أسبانيا، لم يهزم فى واحدة منها، مما يجعل عصره عصراً متميزاً فى الجهاد ضد الحركات المناوئه للحكم الإسلامى بالأندلس.

وبعد أنهيار الأسره العامريه ، سارت الأمور من سيئ إلى أسوأ ، حيث انتهت الخلافه الإسلامية بإنتهاء الأسره العامريه ، ودخلت البلاد فى صراع سياسى وعسكرى أدى الىظهور عدد من الأحزاب والطوائف كل منها تتصارع مع الأخرى من أجل الوصول إلى الحكم . وتمخض عن ذلك ظهور عدد من الدويلات حكمت الأندلس وهى التى اصطلح على تسميتها بحكم الطوائف ، بلغت حوالى ستة عشر دويله مستقله فى كل شئونها الداخليه وكذلك فى علاقاتها الخارجيه، متصارعه فيما بينها، لكن الأدهى من ذلك

والأشد خطوره هو استعانتها فى صراعها مع بعضها البعض بالقوى المسيحية الأسبانية ، وهى العدو اللدود للوجود الإسلامى بأسبانيا ، والتى تحينت الفرصة ، وأخذت تحرز مكاسب على حسابهم جميعاً.

ومن بين تلك الدول التى ظهرت خلال حكم الطوائف بنو عباد الذين حكموا بأشبيلية (٤١٤-٤٨٤هـ/١٠٢٣-١٠٩١م) وبنى جهور بقرطبة (٤٢٢-٤٦٢هـ/ ١٠٣١-١٠٧٠م) وبنى هود فى سرقسطه (٤٨١-٥٠٤هـ/ ١٠٨٨-١١١٠ م) وبنى ذى النون فى طليطلة (٤٠٠-٤٧٨هـ/ ١٠٠٩-١٠٨٥م).

وعلى العكس من حال المسلمين بالأندلس الذين صاروا شيعاً وأحزاباً، توحدت ممالك الأسبان المسيحية فى شمال الأندلس، حيث توحدت ممالك ليون مع مملكه قشتاله فى مملكه واحده، وظهر من حكامها الفونسو السادس (١٠٧٢-١١٠٩م) الذى استولى على طليطلة عام ١٠٨٥م من يد بنى ذى النون دون أن يقدم لها أحد من ملوك الطوائف يد المساعده ، وانما على العكس أخذوا يتودوون للملك الفونسو السادس ، وكأنهم لايدرون وأن الدور سوف يأتى عليهم أن آجلاً أو عاجلاً.

ويبدو أن سقوط طليطله ومافعله الفونسو السادس بعد ذلك من محاولاته لبسط نفوذه على بقية دول الطوائف أخافت الكثير منهم. وجعلتهم يفيقون من ثباتهم العميق.

كذلك مافعله النورمان - من قبل - عند اغاراتهم على بعض المدن القريبه من سرقسطه من تدمير وتخريب خاصة مدينة بربشتر عام ١٠٦٤م، حيث لم يحترموا اية حرمات بها، وأسروا من بها من الأطفال والنساء ، وقتلوا عدداً كبيراً من الرجال، ويذكر أبو عبيد البكرى أن النورمان بعد استيلائهم على بربشتر " اختاروا من أبكار جوارى المسلمين وأهل الحسن منهن خمسة الاف جاريه وأهدوهن إلى صاحب القسطنطينية"، كل ذلك دفع الحريصين على استمرار حكم المسلمين بالأندلس إلى مكابتة يوسف بن تاشفين.

أما يوسف بن تاشفين هذا فقد أستطاع أن يتولى حكم المرابطين بالمغرب وتمتعت دولة المرابطين فى عهده بقوة بحرية وبريه ، مما دفع المعتمد بن عباد إلى مراسلته وحثه على الحضور إلى الأندلس للمحافظه على وجود الحكم الإسلامى بها.

وإن كانت هناك من الدلائل مايشير إلى مراسلات أهل الأندلس ليوسف بن تاشفين قبل سقوط طليطله بما لايقل عن عشر سنوات ، وذلك عندما أحسوا بالأخطار تحيط بهم من كل جانب ، فعقدوا على يوسف بن تاشفين الآمال وأخذوا فى مراسلته ، ثم تلا ذلك سقوط طليطله فى يد الأسبان، مما دفع الاندلسيون فى الالحاح على يوسف بن تاشفين فى سرعة الحضور إلى الأندلس لمد يد العون لهم.

ولما علم بهذه التطورات الفونسو السادس ، أرسل إلى يوسف بن تاشفين يهدده وينذره ويحذره من الحضور إلى الأندلس ، مما دفع يوسف إلى قبول هذا التحدى والحضور على رأس جيشه إلى الاندلس، ويتقابل يوسف بن تاشفين مع جيوش الفونسو السادس فى معركه الزلاقه عام ١٠٨٦/٤٧٩م حيث يحرز نصراً باهراً على جيوش الأسبان.

وقد عاد الفونسو السادس مهزوماً إلى قشتالة ، دون أن يحقق آماله فى القضاء على الدويلات الإسلامية بالأندلس ، لكن ليتحين فرصة أخرى تصاب فيها القوى الإسلامية بضعف وتدهور.

ومن الجدير بالذكر أن الصراع بين القوى الإسلامية بالأندلس ساعد كثيراً على تحقيق الأسبان لإنتصاراتهم ، فإذا كان الفونسو قد قبع فى مملكته بعض الشيئ ، فإن قائداً اسبانياً أخر ظهر على مسرح الأحداث فى ذلك الوقت ، ذلك هو المسمى اوذريق (رودريجو) ويدعى الكنبيطور ، وكان من جنود شانجه آخى الفونسو السادس ، ثم خرج على الفونسو نفسه ، وأخذ يعمل لحسابه تاره فى ظل المسلمين وتاره أخرى فى ظل المسيحيين ، مما يدل على أن الهدف الأساسى من وراء عمليات أوذريق كان تحقيق مكاسب ماديه وليس هدف دينى وهو الأمر الذى ينفى آراء بعض الباحثين المنادين بأن محاربة الأسبان للمسلمين فى تلك الفتره كانت بدافع دينى ، ولكن هى فى حقيقة امرها حروب صليبية قادها المسيحيون بتشجيع من البابوية لتحقيق أهداف سياسية مادية ، ولايشكل الصراع الدينى ولا الأهداف الدينية فيها أدنى سبب .

أما أوذريق هذا فاستطاع عام ٤٨٨هـ/١٠٩٥م أن يستولى على بلنسيه من يد صاحبها ابن قحاف ويعاقبه بعد ذلك بإحراقه حياً فى ساحة المدينة ، ثم عاقب أهل المدينة أسوأ عقاب . وقد صور لنا مؤرخ هذه الفتره وشاهد عيانها ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة هذا الموقف بقوله : " فأضرم له ناراً أتلفت دماءه وحرقت أشلاءه ، حدثنى من رآه فى ذلك المقام وقد حفر له حفير إلى رفقيه وأضرمت النار حواليه ، وهو يُضم مابعَد من الحطب حواليه بيديه ليكون أسرع لذهابه وأقصر لمدة عذابه .." هذا أن دل على شيئ فإنما يدل على ما وصلت إليه أحقاد هؤلاء الجند المأجورين ، ومايكنوه من كراهية للمسلمين.

وبعد أن علم يوسف بن تاشفين بهذه الأحداث ، توجه إلى بلنسيه بعد فراغه من بعض المعارك مع الفونسو السادس فى شمال أسبانيا ، وحاصرت بلنسيه التى سارع الفونسو هو الآخر بالدفاع عنها خاصة بعد وفاة أوذريق عام ١٠٩٩م واستدعاء قادته – اى قادة اوذريق – لألفونسو للدفاع عنها. لكن أمام بسالة يوسف بن تاشفين اضطر الفونسو إلى مغادرة بلنسيه بعد أن أشعل بها النيران عام ١١٠٢م، وتركها تسقط فى يد يوسف بن تاشفين ، وبذلك عادت بلنسيه للحكم الإسلامى ولكن بعد تدميرها وحرقها !!

ومن ناحية أخرى كان ملك أرغون – وهى إحدى الممالك الأسبانيه– أدفونس بن رُدمير (الفونسو الأول الملقب بالمحارب) قد حاصر مدينة سرقسطه عام ١١١٨م تساعده فى ذلك جنود من فرنسا ، ولم تستطع

سرقسطه الصمود أمام هذا الحصار أكثر من سبعة أشهر سقطت بعدها فى يد الفونسو الأول .

وهكذا بدأت تتساقط المدن الأندلسيه تباعاً فى يد الأسبان .

ولم يفلح الموحدون (٥٤٠-٦٢٠هـ/١١٤٥-١٢٢٣م) الذين ورثوا المرابطين فى القيام بواجب الجهاد ضد حركه الأسبان الراميه إلى الاستيلاء على بلاد الأندلس الاسلاميه، لم يفلحوا فى إيقاف تساقط المدن الإسلامية بالأندلس فى يد الأسبان ، على الرغم من محاولاتهم المتكرره مهاجمة المدن الأسبانيه، وبذل الجهد من أجل الصمود فى وجه الهجمات الأسبانيه وأنزلوا بالفونسو الثامن ملك قشتاله هزيمه كبيره فى موقعه الأرك عام ١١٩٥م ، لكن الأحداث كانت أقوى منهم ، وكان التيار الأسبانى جارفاً لدرجة لم يستطع الموحدون الوقوف أمامه بعد ذلك. فلم تلبث أن سقطت الجزائر الشرقيه التابعة للأندلس فى يد الأسبان من ذلك سقوط جزيرة ميورقه كبرى هذه الجزائر عام ١٢٣٠م فى يد ملك أرغون ، كما سقطت جزيرة اليابسة أصغر هذه الجزائر بعد سقوط ميورقه بسنوات قليلة ، فى حين ظلت جزيرة منورته فى يد المسلمين حتى عام ١٢٨٧م حيث سقطت كذلك فى يد ملك أرغون.

وفى داخل الأندلس سقطت قرطب عام١٢٣٦م فى يد ملك قشتاله، وهى التى كانت حاضرة الأندلس وعاصمة الغرب ، كما سقطت بلنسيه عام ١٢٣٨م فى يد ملك أرغون.

وكان الزمن قد تبدل بالموحدين منذ هزيمتهم أما الأسبان فى موقعة العقاب عام ١٢١٢م ، التى انتقم فيها الفونس الثامن لما حل بجيشه فى موقعة الأرك ، ويعلق الحميرى فى الروض المعطار على هذه المعركة بقوله : " أول وهن دخل على الموحدين "، ولم يعد فى مقدورهم الصمود ، فقد تسرب إلى دولتهم الضعف والوهن، وانتهت الأحداث بقيام فتنة فى غرناطة أدت إلى وصول ابن الأحمر إلى حكم غرناطة عام ١٢٣٨م ، أما ابن الأحمر هذا فهو محمد بن يوسف بن محمد بن نصر الخزرجى مؤسس مملكة غرناطة (٦٣٥-٨٩٧هـ / ١٢٣٨-١٤٩٢م).

ورغم الصعوبات التى أحاطت بمملكة غرناطة هذه إلا أنها دامت فى الحكم قرابة قرنين ونصف القرن وحافظت على ماتبقى من حكم المسلمين فى الأندلس، توالى على حكمها مايقرب من عشرين حاكماً بذلوا كل مافى وسعهم لصد هجمات الأسبان ، إلا أنه خلال هذه الفتره أخذ الوجود الإسلامى فى الانكماش ، وبدأت المدن الإسلامية التابعة لغرناطة فى السقوط فى يد الأسبان ، حتى انتهى الأمير بسقوط غرناطة نفسها عام ١٤٩٢م وبذلك انتهى حكم المسلمين بالأندلس.

ومن الجدير بالذكر أن القوى السياسية الأسبانية أخذت تتبلور فى تلك الفتره ، خاصة بعد سقوط العديد من المدن الإسلامية فى يد الاسبان ، حيث ظهر على مسرح الأحداث فى أسبانيا ثلاث قوى كبرى هى:

الأولى ، قوة مملكه قشتالة التى كان ظهورها على مسرح الأحداث كقوة لها تأثيرها منذ توحيدها مع ليون عام ١٢٣٠م.

ثانياً : قوة مملكه أرغون ، التى أصبحت ذات قوة بعد استيلائها على عدد كبير من مدن وجزر الأندلس الإسلاميه.

ولم يلبث أن تم توحيد مملكتى قشتاله وأرغون بمقتضى مشروع زواج فردناند ملك أرغون (١٤٧٩-١٥١٦م) من ايزابيلا ملكة قشتاله (١٤٧٤-١٥٠٤م) ، وأدى ذلك إلى ظهور تاريخ اسبانيا الحديث .

ثالثاً : قوة البرتغال ، التى سوف تلعب دوراً كبيراً ليس فقط داخل أسبانيا ، ولكن خارجها عندما قادت حركه الكشوف الجغرافية.

والبرتغال نسبة إلى الميناء القديم Portus calo ، ويعود بداية تأسيس البرتغال إلى عام ١٠٩٥م عندما كافئ الفونسو السادس ملك ليون الأمير البرغندى هنرى على حروبه ضد المسلمين فزوجه من ابنته تريزا ، ومنحه بعض المناطق التى كانت فى يد المسلمين حول نهر منهو Minho، واستطاع هنرى أن يجعل من هذا الإقطاع إمارة له ولزوجته. وبعد وفاة هنرى وتريزا خلفهما فى الحكم ابنهما الفونسو الأول الذى حصل على موافقة ملك ليون فى أن تصبح الأراضى التى يستولى عليها من يد المسلمين تابعة لإمارته ، وبذلك أخذ يسعى من أجل توسيع امارته على حساب المسلمين ، ولم يلبث الفونسو الأول أن أعلن نفسه ملكا على البرتغال عام ١١٣٩م ، وحصل على موافقة

البابوية على ذلك عام ١١٤٣م، ثم لم يلبث أن استولى على لشبونة من يد المسلمين ، والتى اصبحت عاصمة للبرتغال عام ١٢٦٣م. ومثلها مثل ليون أخذت تستولى على بقية المدن الأندلسية خاصة فى المناطق الجنوبيه فأستولت على سبته عام ١٤١٥م ، وطنجة عام١٤٣٧م، وأصبحت ذات قوة بحرية لايستهان بها. وفى القرن الخامس عشر أخذت تهتم بالمشارع الاستكشافية ونافست أسبانيا فى ذلك.

الدولة البيزنطية فى أواخر أيامها

الاحتلال اللاتينى للقسطنطينية :

بعد نهاية عصر الأسرة المقدونية (٨٦٧-١٠٥٧م) والتى حكمت الدولة البيزنطية قرابة مائتى عام ، والذى كان بمثابة العصر الذهبى للدولة البيزنطية ، بعدها أخذت المشاكل والأخطار تتوالى على الدولة البيزنطية مما أدى فى النهاية إلى سقوطها.

وإذا كان الأتراك السلاجقة قد نالوا منها الشىء الكثير ، وحطموا كبريائها عام ١٠٧١م عندما أنزلوا بها هزيمة ساحقة فى معركة مانزكرت وأسروا الإمبراطور البيزنطى نفسه . فإن هذه الدولة مالبثت أن وقعت فريسة الأطماع الأوربية ، عندما احتلها أمراء غرب أوربا عام ١٢٠٤م فيما عرف باسم الحملة الصليبية الرابعة .

والواقع أن السنوات الأولى من القرن الثالث عشر الميلادى شهدت أحداثاً أثارت الفزع والفوضى داخل عاصمة الدولة البيزنطية ، وهو ماعرف باسم الاحتلال اللاتينى للقسطنطينية من خلال الحملة الصليبية الرابعة .

وقد قامت هذه الحملة نتيجة دعوى البابا انوسنت الثالث Inocent III الذى تولى كرسى البابوية عام ١١٩٨م فما أن تولى كرسى البابوية حتى أخذ يدعو ملوك وأمراء أوربا لضرورة القيام بحملة صليبية لتصحيح الأوضاع فى

الأراضى المقدسة خاصة بعد فشل الحملة الصليبية الثالثة فى تحقيق أهدافها ، وكذلك فى العمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية .

غير أن معظم ملوك أوربا لم يلتفتوا إلى دعوة أنوست هذه وانشغلوا عنه بمشاكلهم الخاصة ولم يستجب لهذه الدعوى سوى نفر قليل من أمراء أوربا. غير أن أهم شخصية لعبت دوراً بارزًا فى هذه الحملة كان دوق البندقية داندولو Dandolo وهو الذى وضع مصالح البندقية فوق كل اعتبار، ومن هذا المنطلق أخذ فى توجيه هذه الحملة لخدمة مصالح البندقية .

وأخذت جموع الصليبين تفد على مدينة البندقية من أجل نقلهم على سفنها إلى المكان الذى يقصدونه وذلك لقاء مبلغ ٨٥ ألف مارك من الفضة ، وكانت مصر هى أول أهداف هذه الحملة باعتبارها مركز المقاومة الإسلامية وأنه باستيلاء الصليبيين عليها يسهل بعد ذلك الاستيلاء على الأراضى المقدسة .

وقد أشار دوق البندقية على الصليبين أن يساعدوه فى استرداد مدينة زارا Zara الواقعة على ساحل دالماشيا حيث كانت له ادعاءات بأحقية السيادة عليها ، وقد وعدهم بالتنازل عن جزء من المبلغ المتفق عليه نظير نقلهم إلى مصر . وبالفعل وافق الصليبيون على طلب دوق البندقية ووصلت سفن الحملة الصليبية الرابعة إلى هذه المدينة المسيحية الآمنة ووجهت إليها ضربة قوية ، وإن كانت هذه الضربة قد وجهت أصلا إلى الحركة الصليبية لأنها كشفت عن مضمون هذه الحركة التى ما هى إلا حركة استعمارية

تحركها دوافع اقتصادية واجتماعية وسياسية فى المقام الأول وأن اتخاذها الصليب شعارًا لها ماهو إلا ستارًا تخفى خلفه أسبابها الحقيقية .

وبعد أن انتهى الصليبيون من تحقيق أهداف البندقية أخذوا يستعدون لمغادرة زارا فى سبيل التوجه إلى مصر وهنا عارضت البندقية فى هذه الوجه ، ويعود السبب فى ذلك إلى أن البندقية فى ذلك الوقت كانت ترتبط بالدولة الأيوبية عن طريق عدة معاهدات تجارية وكان لها مجموعة من الامتيازات التجارية بمدينة الإسكندرية ومعنى ذلك أنه فى حالة توجه هذه الحملة إلى مصر فسوف يؤثر ذلك على مصالح البندقية فى مصر وربما يؤدى هذا إلى فقدانها امتيازاتها التجارية . ولم يكن لدى البندقية استعداد لضياع تلك الامتيازات ، لكل ذلك رفض داندلو نقل رجال الحملة الصليبية الرابعة إلى مصر، وعرض عليهم أن يغيروا وجهتهم ويتوجهوا إلى مدينة القسطنطينية وكانت الظروف كلها مهيأه لتقبل هذه الفكرة ، ويمكن تلخيص العوامل التى ساعدت على تقبل هذه الفكرة إلى الآتى :

أولاً - ماكان يسيطر على عقول الصليبيين من أن الدولة البيزنطية كانت سببًا فى فشل الحملات الصليبية بدءًا من الحملة الصليبية الأولى وما أحاط بها من مشاكل سواء أثناء عبورهم أراضى الدولة البيزنطية أو حتى فى علاقة الدولة البيزنطية بالإمارات الصليبية خاصة إمارة أنطاكية ، ثم ماكان من فشل الحملة الصليبية الثانية وكيف أتهم الصليبيون الدولة البيزنطية فى إضاعة وقت كونراد الثالث ملك ألمانيا ، وذلك الكره الدفين الذى ملأ قلب

فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا تجاه الدولة البيزنطية ، وما لاقاه من تعنت شديد من قبل إمبراطور الدولة البيزنطية أثناء عبوره الأراضى البيزنطية . كذلك لم يخف على الصليبيين تلك العلاقة الودية التى نشأت بين أباطرة الدولة البيزنطية وملوك الأيوبيين ، لكل ذلك كان الشعور العدائى بين الصليبيين والبيزنطيين فى تزايد مستمر .

ثانياً - تلك الرسالة التى أرسلها فيليب السوابى ملك ألمانيا إلى الصليبيين المتواجدين فى زارا يحثهم فيها على التوجه إلى القسطنطينية لمساعدة صهره اسحق الثانى وابنه الكسيوس فى استعادة عرش بيزنطة . والمعروف أن اسحق الثانى كان يتولى عرش الإمبراطورية البيزنطية بين عامى (١١٨٥-١١٩٥م)، وقد خلعه أخاه الكسيوس الثالث (١١٩٥-١٢٠٣م) بعد أن سمل عينيه ، وقد لجأ الكسيوس ابن اسحق الثانى إلى ألمانيا طالبًا المساعدة حيث كان ملكها فيليب السوابى متزوجًا من أخته ايرين Irene وفى محاولة من الكسيوس لحمل الصليبين على مساعدته فى التوجه إلى القسطنطينية لم ينس الجانب المادى ، فعرض عليهم أن يقوم عنهم بسداد المبلغ المتبقى ، مما أدى إلى موافقة رجال الحملة الصليبية الرابعة على التوجه إلى القسطنطينية .

ثالثًا : كذلك فان الصليبيين وجدوا فى الاستيلاء على القسطنطينيه مكسبًا ماديًا كبيرًا ، وقد رأت البندقية أنها سوف تجنى من وراء ذلك مكاسب تجارية هامة .

ولكل هذه الأسباب تمت الموافقة على التوجه إلى القسطنطينية تلك المدينة المسيحية التى من المفروض ألا تدخل فى نطاق ميدان الحروب الصليبية .

وفى عام ١٢٠٣وصلت أساطيل الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية ، مما أثار الرعب والفزع فى قلوب أهالى الإمبراطورية البيزنطية ، واستطاع اسحق الثانى استرداد عرشه المفقود ، وتوج ابنه الكسيوس إمبراطورًا مشاركا له . وحتى هذه اللحظة لم تدخل جيوش الصليبيين إلى القسطنطينية فقد نصحهم اسحق بأن يعسكروا خارجها حتى يعمل على استتباب الأمور ويقوم بعد ذلك بالوفاء بما سبق أن تعهد به للصليبيين من سداد ديونهم للبندقية . غير أنه فشل فى ذلك ، كما فشل فى إقناع أهالى القسطنطينية الذين اعتبروه خائنًا للدولة البيزنطية ومتواطئًا مع الصليبيين فقتلوه هو وابنه الكسيوس فما كان من الصليبيين إلا أن هجموا على القسطنطينية (١٢٠٤م) بعد أن اتفقوا فيما بينهم على تقسيمها ، وأخذوا فى نهب كل ما وصلت إليه أيديهم حتى الكنائس والأديره لم تسلم من ذلك الدمار والتخريب .

وقد استمر الاحتلال اللاتينى للقسطنطينية حتى عام ١٢٦١م وخلال تلك السنوات انهارت الدولة البيزنطية وخربت القسطنطينية تخريبًا واضحًا. وقامت عدة دول وإمارات بيزنطية ففى طرابيزون أعلن بعض الأمراء المنتمين لآل كومنين قيام إمبراطورية بيزنطية ، وفى مدينة نيقيه أقام تيودور

لاسكاريس أمبراطورية أخرى ، وفى ابيروس أقام ميخائيل أنجلو كومنين إمارة بيزنطية . وخلال هذه المدة لم تنقطع المناوشات بين الأمراء البيزنطيين واللاتين والتى انتهت عام ١٢٦١م بدخول قوات ميخائيل باليولوجوس القسطنطينية واستطاع استردادها من يد اللاتين. وبذلك استعاد البيزنطيون حكم بلادهم وانتهى الاحتلال اللاتينى للقسطنطينية بعد ترك آثارًا سيئة على كافة نواحى التاريخ البيزنطى .

صحوة الدولة البيزنطية :

بعد كارثة عام ١٢٠٤م واحتلال اللاتين للقسطنطينية قامت على أنقاض الدولة البيزنطية ثلاث إمبراطوريات هم إمبراطورية نيقية وإمبراطورية أبيروس وإمبراطورية طرابيزون ، وأخذت كل منهم فى محاولة استعادة القسطنطينية وإعادة الدولة البيزنطية إلى سابق عهدها. واستمر كفاح البيزنطيين من أجل استعادة القسطنطينية وطرد اللاتين حتى عام ١٢٦١م.

وتعبر إمبراطورية نيقية هى أبرز هؤلاء الثلاثة فى الكفاح من أجل استرداد القسطنطينية ، ولعل أهم شخصية برزت فى تلك الفترة هى شخصية ميخائيل باليولوجوس الذى تولى حكم نيقية عام ١٢٥٨م حيث استطاع عن طريق العمل الدبلوماسى والسياسى أن يسترد القسطنطينية فى ٢٥يوليو١٢٦١م، واستطاع إحياء الدولة البيزنطية مرة أخرى . ولكن بعد انسلاخ عدد كبير من أجزائها خاصة فى آسيا الصغرى والبلقان.

وقد بذل ميخائيل باليولوجوس جهداً كبيراً من أجل استعادة الأقاليم المفقودة من الدولة البيزنطية ، كما عقد اتفاقيات مع البابوية فى الغرب من أجل كسبها إلى جانبه فى صراعه مع أبيروس ، وإن كان أهالى القسطنطينية نظروا إلى اللاتين نظرة كراهية وحقد مما ساعد على عدم وجود التعاون بين ميخائيل والكنيسة الغربية.

والواقع أن الجهود التى بذلها ميخائيل باليولوجوس جعلته يبدو بصورة الأباطره العظماء الذى أصبح هو أخرهم. فقد خلفه مجموعه من الأباطرة لم تستفد الإمبراطورية من حكمهم فى شيء ، وإنما على العكس انهارت الإمبراطورية البيزنطية شيئا فشيئا فى أواخر عصر أسرة باليولوجوس خاصة فشلهم فى صد الأخطار الخارجية المتمثلة فى أخطار الصرب والبلغار ، أما الخطر الأكبر فكان من جانب الأتراك العثمانين.

سقوط الدولة البيزنطية فى يد العثمانيين:

ويمكننا القول أن صحوة الدولة البيزنطية السابقة كانت صحوة الموت، حيث كانت عوامل الضعف والانهيار قد أخذت مجراها فى شرايين الدولة البيزنطية منذ أمد بعيد ، ويمكن أن نجمل هذه العوامل فى الآتى :

أولاً : تدهور النظم الإدارية وضعف الحكومة المركزية، والمعروف أن الدولة البيزنطية اعتمدت فى نظامها على سلطة الإمبراطور المستبدة ، حيث كان الإمبراطور يستمد سلطته من الله مباشرة ، حيث سار الأباطرة على نفس النهج الذى سار عليه الإمبراطور قسطنطين من كونه

إمبراطور وبابا ، وجمع فى يده بين السلطتين المدنية والدينية، ولذلك سيطر أباطرة الدولة البيزنطية على الكنيسة سيطرة تامة ، على عكس ما كان يحدث فى الغرب الأوربى . لكن شيء فشئ أخذت هذه السلطة فى الضعف ، مما أتاح الفرصة لقيام ثورات ضد السلطة المركزية.

ثانياً : تدهور النظام العسكرى ، وانهيار القوة العسكرية، خاصة فى الفترة الأخيرة من حياة الدولة البيزنطية التى اعتمدت فيها على جيوشه من الجند المرتزقة، حيث كان الجيش البيزنطى خليط من شعوب مختلفة لايحميها سوى الرغبة فى جمع المال والسلب والنهب، وفى أوقات قوة الدولة عملت هذه الجيوش فى خدمة الدولة ، أما فى أوقات ضعف الأباطرة والقادة ، شكل هذا الجيش خطراً جسيماً على الدولة البيزنطية ذاتها.

ثالثاً : انهيار القوة البحرية للدولة البيزنطية ، تلك القوة التى كانت من مفاخر الدولة البيزنطية فى بداية حياتها، وقد ساعد على انهيار هذه القوة البحرية ظهور قوة المسلمين البحرية التى استطاعت فرض نفوذها البحرى على البحر المتوسط خاصة بعد استيلاء المسلمين على جزيرة كريت وصقلية، وحاولت الدولة البيزنطية فيما بعد استعادة قوتها البحرية ، واستمرت كذلك حتى القرن الثانى عشر ، إذ لم تلبث أن انهارت مره أخرى، واعتمدت الدولة البيزنطية بعد ذلك على قوة المدن التجارية الايطالية (جنوه وبيزا والبندقية). ولذلك أصبحت مصالحها وتجارتها مرتبطة ارتباط كبير بهذه المدن، ولعبت هذه المدن دوراً كبيراً بعد ذلك فى تشكيل أحداث الدولة

البيزنطية بما يخدم مصالحها بغض النظر عن مصالح الدولة البيزنطية نفسها.

رابعاً : الصراع الداخلى : لقد لعب الصراع الداخلى خاصة بعد سقوط القسطنطينية فى يد اللاتين وظهور اكثر من دويلة داخل الإمبراطورية البيزنطية ، ثم محاولة نيفية بعد ذلك لم الشمل ، فى أثناء ذلك ظهر التنافس واضحاً على الاستئثار بحكم الإمبراطورية ، ولم يكن هم المتنافسين مصلحة الدولة نفسها، بقدر ما كان همهم الأول هو المصلحة الشخصية ، وقد دفع هذا الوضع الكثير من المتنافسين إلى الاعتماد على أعداء الدولة البيزنطية. وقد أدى هذا فى النهاية إلى ضعف الدولة البيزنطية نفسها.

خامساً : الفتن الداخلية نتيجة الأحوال الاجتماعية والدينية السيئة وكثيرا ماشهدت الفترة الأخيرة من حياة الدولة البيزنطية صراع بين الطبقات الدنيا والأرستقراطية ، بالإضافة إلى ذلك فإن الفكرة التى أراد أن يطبقها الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس وهى التقارب مع البابوية فى الغرب وضم كنيسة القسطنطينية إلى كنيسة روما أثار موجه من الاضطراب الدينى.

سادساً : التخبط فى السياسة الخارجية ، فمن ناحية الغرب الأوربى فقدت الدولة البيزنطية فرص الاعتماد على الغرب الأوربى وذلك بسبب الخلافات المذهبية بين الكنيستين الشرقية والغربية خاصة فى أحلك أوقات الدولة البيزنطية عندما أحدق الخطر العثمانى بالقسطنطينية حيث فضل الكثيرين بالدولة البيزنطية وقوعهم تحت رحمة العثمانيين عن خضوعهم

لكنيسة روما ، كما أن الغرب الأوربى نفسه لم يكن مستعداً للدخول فى صراع مع العثمانيين من أجل الدولة البيزنطية ، خاصة أن معظم القوى السياسية بغرب أوربا كانت فى شغل شاغل عن الشرق ، فقد مزقت المشاكل الداخلية ألمانيا ، فضلاً عن خروجها من الصراع مع البابوية منهكة القوى، أما إنجلترا وفرنسا فقد كان للصراع العسكرى بينهما أثره فى تحطيم قوتهما العسكرية . ومن ناحية أخرى فقد نمت دولتى الصرب والبلغار على حساب ممتلكات الدولة البيزنطية.

سابعاً : العجز المالى الذى عانته خزانة الإمبراطورية من جراء النفقات الطائلة التى استلزمتها المعارك الضارية التى خاضتها، بالإضافة إلى أن الفتن الداخلية أدت إلى انهيار اقتصادى شديد ، ومن ناحية أخرى فإن المدن التجارية الإيطالية التى تولت عمليات التجارة الخارجية استأثرت بقدر كبير من موارد التجارة الخارجية والرسوم التى كانت تحصل على هذه التجارة ، لذلك حرمت الامبراطورية البيزنطية من قدر كبير من ذلك المورد المالى.

وقد تعرضت الدولة البيزنطية فى القرن الرابع عشر الميلادى إلى خطر كبير من جانب العثمانيين. أما هؤلاء العثمانيين فتعود أصولهم إلى القبائل التركمانية الغز ، ويعود الفضل فى تأسيس هذه الدولة إلى عثمان بن أرطغرل (١٢٩٩-١٣٢٦م) الذى ورث عن أبيه النشاط والهمة ، واستطاع أن يرث سلطنة قونية السلجوقية بعد وفاة حاكمها السلطان علاء الدين الثالث

(عام ١٣٠٧م) وأخذ منذ هذا الوقت فى التوسع فى آسيا الصغرى على حساب السلاجقة ، واستولى على بروسة عام ١٣٢٦م واتخذها عاصمة له.

ثم أخذ خلفاء السلطان عثمان فى التوسع على حساب الممتلكات البيزنطية فى آسيا الصغرى حيث استولى أورخان بن عثمان (١٣٢٦-١٣٥٩م) على نيقية عام ١٣٣٠م ، التى اتخذها نقطة انطلاق على سائر مدن آسيا الصغرى التى أخذت تتساقط فى يده مدينه بعد أخرى . ومن آسيا الصغرى انتقل العثمانيون إلى الجانب الأوربى حيث توغلوا فى البلقان، واستطاع السلطان العثمانى مراد الأول (١٣٦٠-١٣٨٩م) الاستيلاء على أدرنة عام ١٣٦١م التى أصبحت بمثابة مركزاً هاماً للحكم العثمانى فى أوربا فى تلك الفترة ، واتخذوها بعد ذلك عاصمة لهم . ومن أدرنة شنوا حملاتهم الحربية على كل جهات البلقان ، وتمكنوا من الإشراف على المضايق البسفور والدرونيل ، وأذعنت لهم الدولة البيزنطية، ودفع لهم أباطرتها الجزية.

وهكذا شكل العثمانيون خطراً كبيراً على حياة الدولة البيزنطية فى الوقت الذى لم يملك فيه أباطرة الدولة البيزنطية دفع هذا الخطر، كما فشلوا فى إثارة الغرب الأوربى ضد العثمانين ، ما اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى الاعتراف بتبعيته للسلطان العثمانى .

وبعد وفاة السلطان مراد الأول تابع ابنه وخليفته السلطان بايزيد الأول سياسة والده فى التوغل داخل الأراضى البيزنطية فى الجانب الأوربى، كما أخذ ينزل الهزائم بمن تسول له نفسه الوقوف فى وجه التوسع العثمانى، من

ذلك إنزاله الهزيمة بالصرب ، ثم إلحاقه هزيمة كبرى بهنفاريا وحلفائها من الفرنسيين فى معركة نيقوبولس عام ١٣٩٦م، وتساقطت فى يده مدن أبيروس وتساليا، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام بايزيد للوصول إلى القسطنطينية ، وبالفعل فرض بايزيد الحصار على القسطنطينية عام ١٣٩٩م ، غير أن هجمات تيمورلنك على أملاك العثمانيين فى أسيا الصغرى ، جعلت السلطان بايزيد يرفع الحصار عن القسطنيطينة ويعود أدراجه لمواجهة الخطر المغولى، غير أنه منى بهزيمة فادحة أمام المغول فى موقعة أنقرة عام ١٤٠٢م ووقع بايزيد نفسه فى أسر تيمورلنك .

تنفست الدولة البيزنطية الصعداء من جراء انسحاب العثمانيين من أوربا، وهللت فرحاً إزاء هزيمتهم أمام تيمورلنك ، واستطاع الإمبراطور البيزنطى مانويل الثانى استعادة بعض الأملاك التى سبق واستولى عليها العثمانيون فى أوربا مثل سالونيكا وبعض أجزاء من تساليا وأبيروس.

لكن القدر لم يلبث أن عبث فى وجه الدولة البيزنطية مرة أخرى، وذلك بعد أن تخلص العثمانيون من الخطر المغولى بانشغال تيمورلنك بمشاكله الداخلية ، واستطاع السلطان محمد الأول (١٤١٣-١٤٢١م) إعادة القوة مرة ثانية للعثمانيين ، وأخذ فى الانتقام من الدولة البيزنطية على ما بدر منها أثناء الأزمة السابقة التى تعرضت الدولة العثمانية لها أثناء الهجوم المغولى عليها، وهنا لم يكن فى وسع الإمبراطور البيزنطى سوى الندم ،وأظهروا الخضوع للعثمانيين أدوا لهم الجزية .

ثم تابع السلطان مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١م) مشروعات أجداده فى الزحف على أراضى الدولة البيزنطية ، ووصل بقواته إلى القسطنطينية التى فرض عليها الحصار عام ١٤٢٢م ، ولم يرفع مراد الثانى الحصار عن القسطنطينية إلا بعد أن تعهد الإمبراطور البيزنطى بزيادة مقدار الجزية المفروضة عليه.

وخلف مراد الثانى ابنه محمد الثانى (١٤٥١-١٤٨١م) الذى لقب بالفاتح نتيجة نجاحه فى فتح القسطنطينية بعد أن فرض عليها الحصار واستمر محاصراً لها إلي أن سقطت فى يده عام ١٤٥٣م.

وهكذا استطاع العثمانيون الاستيلاء على القسطنطينية وبذلك سقطت الدولة البيزنطية التى استمرت قائمة حوالى إحدى عشر قرناً .

ومن الجدير بالذكر فإن محاولة الأتراك العثمانيين لم تكن الأولى من نوعها من أجل إسقاط المسلمين للقسطنطينية ، فالمعروف أن المسلمين منذ بداية الدولة الإسلامية قد شغل تفكيرهم أمر القسطنطينية وبذلوا جهداً كبيراً من أجل الاستيلاء عليها، وكانت أول محاولة فى زمن معاوية بن أبى سفيان الذى أرسل جيشاً لحصار القسطنطينية، لكن لم يتحقق له ذلك، ثم كانت محاولة الخليفة سليمان بن عبد الملك الذى أرسل حملة برية وبحرية بقيادة أخيه مسلمه بن عبد الملك لحصار القسطنطينية لكن هذه الحملة فشلت كذلك . ثم قام العثمانيون بثلاث محاولات الأولى حصار السلطان بايزيد الأول عام ١٣٩٩م والثانية حصار السلطان مراد الثانى عام ١٤٢٢م . أما الثالثة فكانت

على يد السلطان محمد الثانى عام ١٤٥٣م والذى استطاع خلالها فتح القسطنطينية .

وبسقوط الدولة البيزنطية انتهى عصر من عصور التاريخ وهو العصر الوسيط ، ويبدأ بعد ذلك عصر جديد هو العصر الحديث .

أحوال الكنيسة الغربيه فى أواخر العصر الوسطى

إذا كان القرن الثالث عشر يعتبر هو عصر الصراع بين الكنيسة والإمبراطورية الرومانية المقدسة بألمانيا ، فإن القرنين الرابع عشر والخامس يمثلان فترة اشتباك بين الكنيسة وملوك فرنسا .

وإذا كانت البابوية قد خرجت منتصرة فى صراعها الأول ، وإن كان نصراً أثر فيما بعد على مركزها وهيبتها ، فإن الصراع الثانى خرجت منه الكنيسة مكسورة الخاطر ، وانتهى بوضعها تحت رقابة ملوك فرنسا فى أفنون وهو الذى أطلق عليه اسم الأسر البابلى ، ثم ما نتج عن هذا الوضع من أثار سيئة على الكنيسة نفسها .

وقد تصاعد النزاع بين فيليب الرابع (١٢٨٥-١٣١٤م) ملك فرنسا والبابا بونيفيس الثامن (١٢٩٦-١٣٠٣م) خاصة عندما أقال فيليب الرابع عدد من رجال الدين من الجهاز الحكومى ومن البلاط ، وعندما اشتكى رجال الدين فى فرنسا من كثرة المبالغ التى يحصلها منهم فيليب الرابع كضرائب على واردات الكنيسة ، وقدم رهبان السترشيان فى فرنسا شكوى إلى البابا ضد فيليب الرابع بهذا الخصوص.

وقد دفع هذا الوضع الذى أمس فيه رجال الدين دفع البابا إلى إصدار مرسوم عام ١٢٩٦م جاء فيه : " أن أى رجل من رجال الكنيسة يقوم بدفع أى مبلغ من موارده الدينية إلى السلطات العلمانية بدون موافقة البابوية فإنه يعرض نفسه إلى عقوبة التحريم، كما يتعرض لعقوبة التحريم كافة الأشخاص

مهما بلغت درجاتهم إذا فرضوا ضرائب على رجال الدين أو صادروا أملاك الكنيسة ".

وما أن أصدر البابا هذا المرسوم حتى نشبت حرباً بين الطرفين ، وصراع انتهى بوضع البابوية نفسها تحت رقابة ملك فرنسا ، ذلك أن فيليب الرابع قد رد على هذا المرسوم بمنع تصدير الذهب والفضة من فرنسا إلي روما، فحرم الكنيسة من مورد كبير من مواردها، مما دفع البابا إلى الإذعان لطلبات فيليب وأهمها إمداد الحكومة بما يلزمها من أموال والمساهمة فى نفقات الدفاع عن فرنسا ، والمعروف أن فرنسا كانت فى حاجة ماسة إلى المال فىذلك الوقت للإنفاق على الحرب التى كانت تشنها على أعدائها فى الخارج.

ولم يلبث أن تجدد النزاع مرة أخرى بين البابوية وفيليب الرابع عندما ألقى الأخير القبض على برنار Bernard أسقف مدينة باميير الذى أتهم بتحريض الأهالى على العصيان والقيام بأعمال الاضطرابات وإثارة الفتن فى فرنسا. وأودع برنار تحت الحراسة لحين معاقبته ، وطلب فيليب من البابا تجريد برنار من وظيفته الدينية حتى يتسنى له محاكمته. لكن البابا رفض ذلك واعتقد أن عمل من هذا النوع من شأنه تقليل أهمية رجال الدين وإضعاف السلطة البابوية ، لذلك دعى كافة رجال الدين فى فرنسا لعقد مؤتمر دينى لاتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية حقوق الكنيسة وحريتها.

وقد أستاء فيليب الرابع مما أقدم عليه البابا من أعمال ، وكرد فعل للمؤتمر الدينى الذى دعى إليه البابا، دعى فيليب طبقات فرنسا الثلاث (رجال الدين والنبلاء وسكان المدن) لعقد اجتماع عام فى باريس ، وأصدر المجتمعون قرارات تدين موقف البابوية.

وهكذا تعقد الموقف بين البابوية وفيليب الرابع ، وأخذ فى التصعيد من جانب الطرفين حتى اضطر فيليب الرابع إلى اتهام البابا بالاستبداد والقيام بأعمال الشعوذة وسفك الدماء ، ولم يكتف فيليب الرابع بذلك وإنما لجأ إلى استخدام العنف لإجبار البابا على الرضوخ لمطالبه أو محاكمته إذا لزم الأمر. وبالفعل أرسل فيليب الرابع أحد أعوانه سراً إلى روما لاختطاف البابا وإحضاره إلى فرنسا لمحاكمته وذلك فى السابع من مارس عام ١٣٠٣م ، وكان البابا بونيفس قد جاوز من العمر فى ذلك الوقت الخامسة والسبعين عاماً.

وإذا كان البابا قد تم إطلاق سراحه بعد ذلك وأعيد إلى روما مرة أخرى ، إلا أن هول الصدمة التى تعرض لها من أمر اختطافه وحمله إلى المجهول فى فرنسا ، قد أثرت عليه فتوفى بعد رجوعه إلى روما بثلاثة أيام.

ثم آل أمر البابوية بعد ذلك إلى البابا بندكت الحادى عشر (١٣٠٣-١٣٠٤م) الذى أتصف بالعند والوقوف موقف التحدى من سلطة ملك فرنسا ، لكن لم تطل الأيام ببندكت الحادى عشر (فتوفى عام ١٣٠٤م) بعد أن شغل البابوية فترة قصيرة ، فوقع الاختيار على برتران دى كو

Bertrand de Got رئيس أساقفة بوردو لتولى مهام البابوية تحت اسم كلمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤م).

وقد وافق كلمنت الخامس على كل طلبات ورغبات ملك فرنسا فيليب الرابع ، وتم الاتفاق بينهما على أن تسمح البابوية لفيليب الرابع بتحصيل الأموال من الأراضى الكنسية فى فرنسا، وتأييد البابوية لسياسة فيليب فى مقابل أن يقف فيليب فى جانب البابوية.

وهكذا تم التقارب والوفاق بين البابوية وملك فرنسا ، واكثر من ذلك فقد وافق البابا كلمنت الخامس على نقل المقر البابوى من روما إلى افينون Avignon – تقع مدينة افينون بمقاطعة برجنديا على مقربة من حدود فرنسا – وذلك بناء على رغبة فيليب وتأييد معظم الكرادلة الذين كان أغلبهم فرنسيين .

الأسر البابلى Balylonish Captivity (١٣٠٥- ١٣٧٧م) :

أطلق على الفترة التى ظلت البابوية خلالها فى افينون اسم الأسر البابلى ، وذلك تشبيها بإجبار كسرى فارس بختنصر على إجبار بنى إسرائيل على الإقامة فى افنيون ووقعت تحت سلطان ونفوذ فيليب الرابع.

وإذا كان الباباوات فى افينون قد استفادوا من الناحية الاقتصادية ، حيث عاشوا فى ترف وبذخ كبيرين ، إلا أنهم فقدوا الكثير من احترام

المجتمع المسيحى لهم ، خاصة بعد اتهامهم من أنهم صنائع ملوك فرنسا ، وليس لهم عمل سوى جمع الأموال.

وقد وقفت من البابوية فى أفينون كثير من طوائف رجال الدين موقف المعاداة ، خاصة بعد أن دأب الباباوات فى زيادة المبالغ التى يدفعها الأساقفة عن شغلهم لوظائفهم ، وكذلك زيادة الأجور القضائية فى المحاكم البابوية ، ولقصر الوظائف الدينية على المقربين من البلاط البابوى. بالإضافة إلى ذلك فقد وقفت إنجلترا موقف المعاداة من باباوات أفينون التابعين لملوك فرنسا ، والمعروف أن العداء كان مستعمراً آنذاك بين إنجلترا وفرنسا واشتعال حرب المائة عام. لذلك أصدر ملوك انجلترا قراراً يحرم على رجال الدين فى إنجلترا بتسلم مناصبهم الدينية من باباوات أفينون.

ونتيجة هذه المواقف العدائية تجاه باباوات أفينون ، أحس الأخيرون بوضعهم السيئ الذى صاروا إليه ، فبدأت تراود البعض منهم فكرة العودة إلى روما. وأخيراً استطاع البابا جريجورى الحادى عشر (١٣٧٠-١٣٧٨م) العودة إلى روما ، حيث مكث بها عدة أشهر ثم توفى ، ليخلفه بعد ذلك البابا أوربان السادس (١٣٧٨ - ١٣٨٩م) الذى أعلن صراحة عدم رغبته فى العودة إلى أفينون ، على الرغم من معارضة بعض الكرادلة الراغبين فى العودة إلى أفينون طمعاً فى الحصول على موارد مالية أكثر وحياة أرغد .

الانشقاق الدينى أو الفتنه الكبرى :

لم يقنع كثير من الكرادلة بحياتهم الجديدة فى روما التى سادها التقشف بعد أن تعودوا على حياة الترف والبذخ فى أفينون ، لذلك رفضوا الرضوخ لمطالب البابا أوربان السادس من التضحية بحياة الترف والبقاء فى روما. وانتخبوا بابا أخراً هو كلمنت السابع (١٣٧٨-١٣٩٤م) ، معللين موقفهم هذا بأن أوربان السادس لم ينتخب بطريقه شرعيه وإنما أملاه عليهم أهالى روما، أما كلمنت السابع فقد قرر الإقامة فى أفينون.

وبذلك أصبح على رأس البابوية اثنان أحدهما فى روما والآخر فى أفينون . وقد جلب هذا الوضع الذى أمست فيه البابوية الأضرار الكثيرة حيث تدهورت هيبة الكنيسة الكاثوليكية ، ولم تعد تحتل نفس المكانة السابقة فى نظر المحيطين من أهالى غرب أوربا.

ومن جهة أخرى فقد كان للأحداث السياسية التى أحاطت بأوربا فى تلك الفترة أثره فى تغذية هذا الشقاق الدينى، إذ وقفت فرنسا إلى جانب كلمنت السابع بينما أيدت إيطاليا وإنجلترا أوربان السادس.

بالإضافة إلى ذلك فقد أخذ الصراع كل أشكاله بين باباوات روما وباباوات أفينون ، كل يحاول إلصاق التهم بالآخر ، كما أخذ كل فريق يعين مؤيديه فى المناصب البابوية بصرف النظر عن الكفاءة أو المقدرة على القيام بهذه الأعمال. وقد أدى هذا الوضع الشاذ إلى رفض المجتمع الأوربى لما وصلت إليه البابوية من تدهور.

وقد حاول بعض الكرادلة إنهاء هذا الوضع الشاذ الذى صارت إليه البابوية ، فدعوا إلى عقد مجمع دينى فى بيزا عام ١٤٠٩م قرروا فيه عزل بابا روما وبابا أفينون ، واختيار بابا جديد، وبالفعل تم اختيار البابا إسكندر الخامس، لكن باباوات روما وباباوات أفينون رفضوا قرارات مجمع بيزا الدينى وتمسكوا بمناصبهم ، مما أدى إلى وجود ثلاث باباوات فى وقت واحد، أحدهما فى روما والثانى فى أفنيون الثالث فى بيزا !!

وإذا كان هذا الوضع الشاذ لم يستمر طويلاً فلم يلبث أن أصدر مجمع كونستانس الدينى قراراته عام ١٤١٥م بعزل هؤلاء الباباوات الثلاث، واختير بابا واحد على رأس الكنيسة الغربية هو مارتن الخامس (١٤١٧-١٤٣١م)

حركات الإصلاح الدينى :

كان من نتيجة هذا الوضع السيئ الذى وصلت إليه البابوية أن ظهر على مسرح الأحداث فى أوربا من أخذ ينادى بإصلاح أحوالها، خاصة بعد ما وصلت إليه من فقدان عظمتها وهيبتها نتيجة ما حدث خلال الأسر البابلى ثم الانشقاق الدينى .

وقد دفع هذا الوضع إلى ظهور حركه إصلاحية كبرى تزعمها مارتن لوثر (١٤٨٣-١٥٤٦م) ، وهو الرجل الذى ساعد بأفكاره على تغيير كثير من مفاهيم المجتمع الأوربى.

ولاشك فى أن الذى مهد لظهور حركه مارتن لوثر اثنان من المصلحين هما حنا وكلف وحنا هس اللذان ناديا بعدة آراء من أجل إصلاح ماتردت إليه الكنيسة الكاثوليكية ، وقد وصفت الكنيسة هذه الآراء بأنها هرطقيه أى أنها خارجة عن أراء الكنيسة ووقفت منها موقفاً معادياً.

أما حنا وكلف – فهو إنجليزى ولد عام ١٣٢٨م – فقد دعى إلى أن تترفع الكنيسة عن ملكية الأرض ، وإذا احتفظت بجزء منها فعليها أن تستغلها استغلالاً طيباً ، وذلك لأن انغماس رجال الدين فى الثراء الفاحش يبعدها عن حياة الزهد ببعدهم عن القيام بأعمالهم وواجباتهم الدينية .

كذلك أراد وكلف أن يخلص الكنيسة مما شاب اللاهوت من الآراء الخاطئة بسبب البعد عن فهم الإنجيل فهماً صحيحاً ، لذلك دعى إلى قراءة الإنجيل وأن تستقى الكنيسة تعاليمها منه مباشرة ، وعكف وكلف هو وجماعة من أتباعه على ترجمة الإنجيل إلى اللغة الإنجليزية حتى يتسنى فهمه فهماً صحيحاً .

وقد وجدت آراء وكلف هذه استجابة وصدى كبير فى إنجلترا خاصة من الأمراء والحكام الطامعين فى الاستيلاء على أملاك الكنيسة ، أما الكنيسة فقد وقفت من وكلف ودعوته موقفاً معادياً وحملت عليه حمله شعواء .

وإذا كانت الكنيسة قد حاربت آراء وكلف هذه ، فإنها انتشرت فى كل أنحاء أوربا ، وأدت إلى ظهور حركات مماثلة بعد ذلك ، أما وكلف نفسه فقد توفى عام ١٣٨٣م بعد أن اعتزل بقية حياته .

أما حناهس - ولد فى براغ عام ١٣٧٣م - فقد اعتمد على بلاغته وخطبه فى إثارة الحماس ضد ماتردت إليه الكنيسة . واعتنق هس بعض آراء وكلف ونادى بآراء أخرى لإصلاح الأوضاع بالكنيسة . أما محور الصراع بينه وبين الكنيسة فقد أثاره موقفه المعارض من توزيع صكوك الغفران ورفضه لها ، وكانت البابوية قد اتبعت طريقة بيع صكوك الغفران وذلك لجمع المال للقيام بالحملات الصليبية والاتفاق على مشاريع البابوية . وقد نادى هس بأن هذه الصكوك ماهى إلا بدعه وليست فى الدين من شيء. ويبدو أن آراء هس هذه كانت تعارض كثير من مفاهيم هذه الفترة ، حيث وقفت ضده الكنيسة وانتهى الأمر بإدانته بتهمه الهرطقه وتقرر حرقه عام ١٤١٥م.

وإذا كان قد تم القضاء على حنا وكلف وحناهس فإن أرائهما بقيت وانتشرت فى كل أنحاء غرب أوربا ، واشعلت نار حركه إصلاحية دينية كبرى هى التى تزعمها مارتن لوثر فيما بعد والتى غيرت مفاهيم المجتمع الأوربى تغيراً كبيراً ، وأدت مع مجموعة من العوامل الأخرى إلى ظهور العصر الحديث .

تم بحمد الله

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع	الصفحة
- تمهيـــــد	٣
- إحياء الإمبراطورية الرومانية	٧
- صحوة البابوية	٢٥
- الصراع بين البابوية والإمبراطورية	٣١
- النورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية	٥٦
-آل الكابيه فى فرنسا	٧٤
- إنجلترا والحكم النورماندى	٨٢
- أسرة البلانتاجنت فى إنجلترا وحرب المائة عام	٩١
- أوربا والحروب الصليبية	١٠٧
- الدولة البيزنطية والغرب الأوربى	١٤٤
- أسبانيا فى العصور الوسطى	١٥٩
- الدولة البيزنطية فى أواخر أيامها	١٧٩
- أحوال الكنيسة الغربية فى أواخر العصور الوسطى	١٩٣